أنطونيو غرامشي

شجرة القنفذ

19.7.2017

والرّسائل الجديدة



ترجمها عن الإيطاليّة وقدّم لها: أمارجي



أنطونيو غرامشي

شجرة القنفذ

والرّسائل الجديدة

تليها قصيدة "رماد غرامشي" لبيير باولو بازوليني

ترجمها عن الإيطاليّة وقدَّم لها:

أمارجي



L'albero del riccio e nuove lettere

Antonio Gramsci

الطبعة الأولى 2016

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963 112257677

ص. ب: 11418، دمشق - سوريا

taakwen@yahoo.com

المرمَّدُ بين الأحياء... الحيُّ في رمادِه

مِن نافلِ الكلامِ الكلامُ على غرامشي كرَمْز. لكن ما الرَّمزُ إن لم يكن إسقاطاً لغواياتنا البدئيَّة، لحالوميَّتنا الأولى؟ منذ اللحظة التي نُغوى فيها، أو نحلم، نلمسُ الوهجَ. الرَّمز هو إبدالُ الدُّثور بالوهج. كثيراً ما يكون الرَّمز ابناً للصُّدفة، تخرجِ شعلته من التقاء صوَّانِ الصُّدَف بزناد التَّاريخ، وتكون شعلةً رقيقةً قلقة، مرتابةً بنورِها؛ لكن في بعض الحالات يتموَّه الرَّمز بالمصير، يصبحان اللهبَ نفسَه، الوثيقَ والمكين، المتيقِّنَ من نورِه والجديرَ بوجوده.

غرامشي، كرمزٍ، هو مصيرُه بالذَّات... مصيرُه المسكونُ بشعاعٍ وفيٍّ، بالتَّساوي، لمبعثِه ولمصبِّه.

* * *

والحالُ، عندما يتقوَّى رمزٌ، وينمو، مغتذياً بالعذاب فإنَّه يرتدي قيمةً كونيَّة. وعندئذٍ لا فرق أن نقول: رمزٌ- لهبٌ، أو لهبٌ- رمز. فالرَّمز في الحالتين فِعلُ احتراقٍ بلا خُتْمة، حركةُ تبادلِ عموديٍّ لانهائيَّةٌ بين المِحرَق والأرمدة. العذابُ الذي يكثِّف المِحرَق، يؤلِّهُ ويؤسطر؛ ومع أن معتركَ عملِه هو في الأسفل، في منبتِ اللهب، إلَّا أنَّ صفوة عملِه إنَّما تُرى في الأعلى، في اللهب العُلويِّ المتخلِّص من الاقترانات والصَّاعدِ نحو التَّطلُّقات. العذابُ يثبِّتُ الرَّمزَ في الأسطورة، واللهبُ يرفعُه ويمدُّه في الزَّمن، إلى النُّقطة التي تتشاكلُ عندَها المجازاتُ بالحقائق، والحقائق بالمجازات. كمثلِ ساعةٍ رمليَّةٍ كان عذابُ غرامشي

في كفِّ القدَر؛ ما إن تهوي الرَّملة الأخيرة من البُصيلةِ العليا حتَّى تقلبَ الكفُّ السَّاعة وتعيدَها سيرتَها الأولى، بلا رحمة. ولو أنَّ الكفَّ تركت ساعة الرَّملِ تلك، لنقصتْ نبوَّة الرَّمز أو انعدمتْ.

* * *

العزلةُ أيضاً، توسِّعُ من حولِها حُلميَّةَ الرَّمز.

هنا، يتنفَّس الرَّمزُ داخل عدمِه الذَّاتي، ينسكبُ قويَّاً في عدمِه، ومن ذلك الجحيم المستوحِد تخرجُ شراراتٌ نبويَّة. رسائل غرامشي هي تلك الشَّرارات المتأوِّهة، الإرناناتُ الحارقة، التي تستنجدُ لا تعرفُ بماذا، بيدَ أنَّها تتخثَّرُ في مكانها، في حنجرةِ الوامض. كلماته التي تتكسَّى بشاسعٍ من العزلة، تنطوي في هاويتها، شاهدةً على تحوُّلاتها عن العالَم، وعلى انفصامِ العالَم عنها، آخذةً برقبةِ اللهب إلى أقصى الأضحية، أقصى القربان المجيد.

أمارجي

كرونولوجيا حياة أنطونيو غرامشي

1891

في 22 كانون الثَّاني وُلِد أنطونيو غرامشي في آلِس (التَّابعة لإقليم كالْياري). والدُه فرانْتشِسكو ووالدته جوزِبِّينا مارشياس، وكان رابع أخوته السَّبعة (جنَّارو، غراتْزييتَّا، إمَّا، أنطونيو، ماريو، تِرِزينا، كارلو). والدُه، الذي كان ابناً لكولونيل في الجندرمة التَّابعة لأسرة البوربون الحاكمة، وُلِدَ في غايتا سنة 1860 منحدراً من عائلةٍ ذات أصولٍ ألبانيَّة انتقلتْ للعيش في صقلية بعد الثَّورة اليونانيَّة التي اندلعتْ سنة 1821. بعد إتمام مرحلة دراسته الثَّانويَّة وجدَ الأبُ عملاً في مكتب سِجلَّات غيلارزا (1881). في سنة 1883 تزوَّج مِن جوزِبِّينا مارشياس، وما لبثا أن انتقلا للعيش في آلِس. أمَّا الأم، المولودة في غيلارزا سنة 1861، فهي ساردينيَّة الأصولِ من جهةِ الأب والأمِّ معاً، وتربطها علاقات قرابةٍ مع أسَرٍ مُوسِرة الحال هناك.

1894ـ 1896

أرسِل مع شقيقاته إمَّا وغراتْزييتَّا وتِرِزينا إلى مأوىً للرَّاهبات قرب نُوُورو بعدما انتقلت عائلة غرامشي مِن آلِس للعيش هناك. كان الطِّفل أنطونيو يعاني من مشاكل صحِّيَّة؛ وخلال هذه الفترة ـ وكان عمره آنذاك قرابة الأربع سنوات ـ سقط من بين ذراعَي امرأة كانت تعمل في خدمة العائلة، ما تسبَّب له بتشوُّهات جسديَّة.

1898 ـ 1897

فُصِلَ والدُه من العمل، ثمَّ سُجن وأدين لارتكابه مخالفة إداريَّة، فانتقلت الأمُّ مع أبنائها السَّبعة للعيش في غيلارزا، وهناك ارتاد أنطونيو الصَّغير (المدلَّع بِـ "نينو") المدرسة الابتدائيَّة.

1905 ـ 1903

بعد حصوله على الشَّهادة الابتدائيَّة في صيف 1902 أرغمته الظروف المعيشيَّة الصَّعبة لأسرته على العمل لسنتين في دائرة غيلارزا للتَّسجيل العقاري، مواصلاً دراسته في المنزل بنفسِه.

1908 ـ 1905

بفضل الدَّعم المقدَّم من والدته وشقيقاته عاد إلى مواصلة دراسته وارتاد الصُّفوف الثلاثة الأخيرة من المرحلة الإعداديَّة في سانتو لوسورجو التي تبعد عن غيلارزا حوالي 15 كيلو متراً. خلال هذه الفترة أقام أنطونيو بسانتو لوسورجو في منزل سيِّدة قرويَّة، وقد أظهر آنذاك ميلاً منقطع النَّظير إلى مادَّتي الرِّياضيات والعلوم. في سنة 1905 بدأ بمطالعة الصُّحُف الاشتراكيَّة، ومن بينها صحيفة Avanti! "إلى الأمام" التي كان يرسلها إليه أخوه الكبير جِنَّارو مِن مدينة تورينو حيث كان ملتحقاً بالخدمة الإجباريَّة.

1911 ـ 1908

بعد حصوله على الشَّهادة الإعداديَّة في أوريستانو التحق بثانويَّة دِتُّوري في كالياري، حيث أقام مع أخيه جِنَّارو الذي عملَ آنذاك محاسباً في مصنع للثَّلج، وأميناً لصندوق مجلس العمَّال، ثمَّ سكرتيراً لفرع الحزب الاشتراكي، وقد أتاح ذلك لأنطونيو مواكبة الحركة

الاشتراكيَّة والمشاركة الفعَّالة في الاجتماعات الشَّبابيَّة التي كانت تناقش المشاكل الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لتلك الجزيرة. أبدى أنطونيو مشاعر تمرُّد عميقة تجاه طبقة الأغنياء مختلطةً بمشاعر اعتداد بانتمائه الإقليمي. في سنة 1910 نشر أوَّل مقال له في يوميَّة كالياري "الاتِّحاد السَّارديني" التي كان يديرها رافًا غراتسيا، كما عمل مراسلاً في آيدوماجُّوره، مركزٍ صغيرٍ قرب غيلارزا، في منطقة تيرسو. واظب على قراءة صحيفة Il Viandante "الجوَّاب" لصاحبها توماسو مونيتْشِلِلي، وتابع مقالات سالفِميني، وكروتشِه، وبْرِتزوليني، وتْشِكِّي، وغيرهم؛ وخلال هذه السَّنوات أيضاً بدأت قراءته لماركس، مدفوعاً بفضول فكريٍّ. في فترات العطل، وإسهاماً منه في نفقات الدِّراسة، عملَ محاسباً وأعطى دروساً خاصَّة.

1911

في الصَّيف حصل على شهادة البكالوريا، ولكي يلتحق بالجامعة قرَّر التَّقدُّم إلى امتحان الحصول على منحة دراسيَّة بقيمة 70 ليرة شهريًّاً، ولعشرة شهور في العام، تقدِّمها كلِّيَّة كارلو ألبِرتو في تورينو للطَّلبة الذين يعانون ضيقاً ماديًّاً وترجع أصولهم إلى إحدى مقاطعات مملكة ساردينيا. أمضى بضعة أسابيع في أوريستانو عندَ عمِّه سِرافينو كمدرِّسٍ لحفيده دِليو. عند نهاية الصَّيف غادرَ إلى تورينو، بعد استراحةٍ قصيرةٍ في بيزا ضيفاً على أفراد عائلة دِلوغو أقرباء أمِّه.

في تشرين الأوَّل خاضَ الامتحان، الذي كان من بين المتقدِّمين إليه كذلك بالميرو تولياتِّي وأوغوستو روستاني وليونِللو فينتشِنتي، وحصلَ على المنحة الدِّراسيَّة.

في تشرين الثاني التحق بكلّيّة الآداب، وسكن أوّل الأمر في جادّة فيرنتسِه، ثم لفترةٍ وجيزةٍ في شارع سان ماسّيمو رفقة آنجِلو تاسكا صديق الدراسة ورئيس حركة الاشتراكيّين الشّباب، وبعد ذلك انتقل للعيش عند الأرملة بيرًا، في غرفةٍ صغيرةٍ تقع في الطّابق الأخير في ساحة كارلينا 8، قريباً من الجامعة.

1912

عاش الشُّهور الأولى من حياته الجامعيَّة منعزلاً، وكان يعاني أوضاعاً ماديَّة صعبة أوصلته إلى حالة من الانهيار العصبي. انصبَّ اهتمامه بنحوٍ خاصٍّ على دراسة علم اللسانيّات، كما واظب على حضور محاضرات أومبرتو كوزمو في الأدب الإيطالي. أثناء دراسته للقانون الروماني الاثني عشري (الموضوع من قبل المجلس العشاري) على يد البروفسور باكيوني تجدّدت معرفته بتولياتّي، وبدأت بذلك صداقتهما. بعد فترةٍ قصيرةٍ كتبا معاً بحثاً حول البنية الاجتماعيَّة في ساردينيا. أمضى عطلة الصَّيف مع عائلته في غيلارزا. خلال فصل الدّراسة الخريفي اجتاز الامتحانات التّالية: الجغرافيا (30) في 4 تشرين الثّاني؛ علم اللسانيّات (30 مع درجة شرف)، وقواعد اللغتين اليونانيَّة واللاتينيَّة (27) في 12 تشرين الثّاني.

1913

كرّس نفسَه كليّاً للدّراسة، مواظباً خلال العام الأكاديمي 1912 ـ 1913 على حضور الكثير من الدّورات الدّراسيَّة في كلّيّتي الآداب والقانون، لكن بسبب العوارض الصّحيَّة لم يتمكّن من التقدُّم لأيِّ امتحان.

في تشرين الأوّل أرسل أنطونيو من غيلارزا رسالة انتساب إلى "جماعة المناهضين لمذهب الحماية الاقتصاديَّة" في ساردينيا، وقد ظهرت الرّسالة في صحيفة La Voce "الصّوت" في التّاسع من ذلك

الشَّهر. شهدَ في ساردينيا المعركة الانتخابيَّة التي جرت بين (26 تشرين الأوَّل ـ 2 تشرين الثَّاني) وكانت أوَّل انتخابات تضمن حقَّ التَّصويت العام، وقد تأثَّر كثيراً بذلك التَّحوُّل الذي أحدثته المشاركة الكبيرة للقرويِّين في الحياة السِّياسيَّة، وهذا ما عبَّر عنه في رسالته إلى صديقه تاسكا. الشُّهور اللاحقة شهدتْ اتِّصالاته الأولى مع الحركة الاشتراكيَّة في تورينو، ولا سيَّما مع الشَّباب في "الرَّابطة المركزيَّة"، وفقاً لشهادة صديقه تاسكا. خلال هذه الفترة، على الأرجح، انخرط غرامشي رسميَّاً في فرع الحزب الاشتراكي في تورينو.

1914

في الرَّبيع اجتاز الامتحانات التَّالية: الفلسفة الأخلاقيَّة (25) في 28 آذار؛ التَّاريخ الحديث (27) في 2 نيسان؛ الأدب اليوناني (24) في 18 نيسان. واظب على قراءة صحيفتي "الصَّوت" و"الاتِّحاد"، وخطَّط مع مجموعة من الأصدقاء لتأسيس مجلَّة اشتراكيَّة. دعمَ الطَّليعيِّين من العمَّال والطَّلبة (من اشتراكيِّين وفوضويِّين، وغيرهم) الذين شكَّلوا في تورينو شعبة اليسار الثَّوري وشاركوا بنشاطٍ في التَّظاهرة العمَّاليَّة الكبرى التي جرتْ في التَّاسع من حزيران خلال "الأسبوع الأحمر".

في تشرين الأوَّل شارك في النِّقاش الدَّائر حول موقف الحزب الاشتراكي الإيطالي من الحرب وذلك عبر مقاله "عدم الانحياز النَّشِط والفعَّال" الذي نُشِر في صحيفة "صرخة الشَّعب" في 31 تشرين الأوَّل، في مناظرةٍ مع تاسكا المناصر لفكرة "عدم الانحياز المطلَق". في 11 تشرين الثَّاني اجتاز امتحان الآداب اللاتينيَّة الحديثة (27). في كانون الأوَّل أوعز البروفسور بارتولي إلى رئاسة المؤسَّسة الألبرتينيَّة[1] أنَّ "الشَّاب غرامشي يتعرَّض بين فترةٍ وأخرى لأزمة عصبيَّة تمنعه من حضور الدُّروس بالحيويَّة اللازمة".

---

(1) نسبةً إلى كارلو ألبرتو ملك ساردينيا، (م).

1915

في شتاء 1914 ـ 1915 واظب على حضور محاضرات في الفلسفة النَّظريَّة لهانيبال باستوره الذي أعطاه كذلك بعض الدُّروس الخاصَّة. في 12 نيسان تقدَّم لامتحان الأدب الإيطالي، وكان ذلك آخر امتحانٍ له، حيث غادر الجامعة بعدئذٍ، لكن على الأقل حتَّى تاريخ 18 نيسان بدا رافضاً للتَّخلي عن حلمه بالحصول على الإجازة الجامعيَّة في علم اللسانيَّات.

في خريف هذا العام استأنف تعاونه مع صحيفة "صرخة الشَّعب" لمديرها جوزيِّه بيانكي عبر سلسلة من البيانات والمقالات الأدبيَّة والاشتراكيَّة. في العاشر من كانون الأوَّل عُيِّن عضواً في هيئة تحرير صحيفة "إلى الأمام!".

1916

انهمك كليَّاً، وعلى نحوٍ مكثَّف، بالعمل الصحفي كمكلَّف بالأخبار المسرحيَّة ومناظرٍ في عمودٍ صحفيٍّ عنوانه Sotto la Mole "تحت القبَّة" في صحيفة "إلى الأمام!". من الموضوعات التي تطرَّق لها نذكر البلاغة القوميَّة والدَّخيلة، والأخلاق الفكريَّة والاشتراكيَّة السيئة. ألقى محاضراتٍ على الحلقات العمَّاليَّة في تورينو عن رومان رولان، ومجلس بلديَّة باريس، والثَّورة الفرنسيَّة، وماركس، وأندريا كوستا، وغير ذلك.

1917

في شباط تولَّى غرامشي تحرير عدد وحيد من نشرة الشَّبيبة الاشتراكيَّة البيومونتيَّة[1] La Città futura "مدينة المستقبل"، عدد 11 شباط.

---

(1) نسبةً إلى إقليم بيامونتي بإيطاليا، (م).

في نيسان وتموز امتدحَ، عبر بعض المقالات والبيانات في "صرخة الشّعب"، شخصيّةَ لينين، وتطرّق إلى الأهداف الاشتراكيّة للثّورة الرُّوسيّة.

في آب شارك في تحضيرات فرع تورينو الاشتراكي لاستقبال مجموعة من المبعوثين الرُّوس من دول الاتّحاد السوفييتي. تمّت الزّيارة في 13 آب بالتّزامن مع تظاهرة عمّاليّة كبيرة تحيّةً للثّورة الرُّوسيّة ولِلينين.

في أيلول، بعد الإضراب العمّالي 23-26 آب واعتقال جميع أنصار الحزب الاشتراكي في تورينو تقريباً، أصبح غرامشي سكرتير اللجنة التنفيذيّة المؤقّتة لفرع تورينو كما تولّى، في الوقت نفسِه، إدارة تحرير صحيفة "صرخة الشّعب" التي "كرّس لها الجزء الأكبر من وقته ومن نشاطه المصحوب بقلقٍ متفاقم" وذلك حتّى نهاية تشرين الأوّل من عام 1918.

في 20 تشرين الأوّل نشر عدداً من صحيفة "صرخة الشّعب" خُصِّصَ بالكامل لقضيّة الحرّيّة الجمركيّة.

في 18 و19 تشرين الثّاني ذهب إلى فيرنتسِه، بصفته ممثّلاً للجنة فرع تورينو التنفيذيّة المؤقّتة ومديراً لتحرير صحيفة "صرخة الشّعب"، للمشاركة في الاجتماع السِّرّي لِـ "الهيئة الثّوريّة المتشدّدة" التي شُكِّلتْ في شهر آب؛ وكان من بين الحاضرين لاتزاري، سِرّاتي، بومباتشي، وبورديغا؛ وقد قاسَمَ غرامشي بورديغا وجهةَ نظرِه حول ضرورة المشاركة الفاعلة للبروليتاريا في أزمة الحرب.

في كانون الأوّل اقترحَ تشكيل جمعيّة بروليتاريّة ثقافيّة في تورينو، وأكّد على ضرورة دمج النّشاط السِّياسي والاقتصادي بمنظومةٍ تُعنَى بالنّشاط الثّقافي. أسّسَ مع بعض الشُّبّان ـ كارلو بوكّاردو، وأتيليو كارِينا، وأندريا فيغلونغو ـ "منتدى الفلسفة الأخلاقيّة".

عقَّبَ على استيلاء البُلْشُفِيِّين على السُّلطة في مقالته "الثورة ضدَّ رأس المال" التي نشرَها سِرَّاتي في صحيفة "إلى الأمام!" الصَّادرة بميلانو في 24 كانون الأوَّل. في الشُّهور التَّالية قاد في صحيفة "صرخة الشَّعب" حملةً لأجل إحياء الحركة الاشتراكيَّة فكريّاً وثقافيّاً، وتساوقاً مع ذلك استمرَّ بنشر الآراء والأخبار والوثائق حول تطوُّرات الثَّورة في روسيا، يساعده في ذلك زميله البولاندي آرون ويتْزِنر.

1918

في كانون الثَّاني، بعد اتِّهامه بمحاباة "مذهب الإرادة"، كتب مقالةً يحاجج فيها كلاوديو تْرِفِس عنوانها "النَّقدُ النَّقديُّ"، نُشرتْ في صحيفة "صرخة الشَّعب" في 12 من هذا الشَّهر.

في نيسان وأيَّار وحزيران تكرَّر ذكر اسم غرامشي في تقارير المقاطعة إلى جانب أسماء رؤوساء فرع تورينو الاشتراكي المرتبط بالهيئة الثَّوريَّة المتشدِّدة. أحيا ذكرى ميلاد ماركس في صحيفة "صرخة الشَّعب" عبر مقالته "ماركسُنا" (عدد 4 أيَّار)، والتي أعيد نشرُها في صحيفة L'Avanguardia "الطَّليعة" (عدد 26 أيَّار).

في 22 حزيران نشرَ في "صرخة الشَّعب" مقالاً بعنوان "نحو معرفة الثَّورة الرُّوسيَّة".

في أيَّار شهدَ لصالح ماريَّا جوديتشِه ـ رئيس تحرير سابقة لصحيفة "صرخة الشَّعب" ـ في الدَّعوى القضائيَّة المتعلِّقة بأحداث تورينو التي وقعت في آب 1917.

في 19 تشرين الأوَّل، بإذنٍ من غرامشي، انقطعت "صرخة الشَّعب" عن الصُّدور لإتاحة المجال لصحيفة "إلى الأمام!" بالانتشار في تورينو.

في 5 كانون الأوَّل صدر العـدد الأوَّل مـن طبعـة تورينـو لـصحيفة "إلى الأمـام!"، وكـان رئـيس تحريرهـا أوتَّـافيو باسـتوره، فيمـا عُـيِّن غرامشي عضواً في هيئة التَّحرير وقد ارتقت عمليَّـة الـسَّحب المطبعـي للصَّحيفة من 12 ألف نسخة إلى 50 ألف نسخة خلال بضعة شهور.

1919

في شباط نـشر في دوريَّـة بـيرو غـوبيتِّي Energie Nove "طاقـات جديدة" التي تصدر كـل أسـبوعين، (العـدد المـزدوج 7 ـ 8)، مقـالاً بعنوان "الدَّولة والسِّيادة" يهاجم فيه ما كتبه بالبينو جوليانو تحت عنوان "لماذا أنا رجلُ نظامٍ".

في نيسان مارسَ نشاطاً دعائيَّاً اشتراكيَّاً مـؤثِّراً في أوسـاط القـرويِّين المجنَّدين المرسَلين إلى تورينـو مـن ساسَّـاري بمهمَّـة الحفـاظ علـى الأمن العام. قرَّر غرامشي، مع تاسكا وأومبرتـو تِرَّاتـشيني وتوليـاتِّي، إعـادة إحيـاء مجلَّـة "النِّظـام الجديـد. دوريَّـة أسـبوعيَّة تُعنَـى بالثَّقافـة الاشتراكيَّة"، حيـث تـولَّى غرامـشي منـصب سـكرتير التَّحريـر، وقـد تحمَّل تاسكا الأعباء الماليَّة التي بلغت (6000 ليرة).

في الأوَّل من أيَّار صدرَ العدد الأوَّل مـن "النِّظـام الجديـد"، ومـن حوالي 3000 قارئ و300 مشترك في عام 1919 ارتفع العدد في العـام التَّالي إلى حوالي 5000 نسخة و1100 مشترك. وفي هذا الشَّهر انتُخِـبَ غرامشي من قبل اللجنة التنفيذيَّة لفرع تورينو الاشتراكي.

في حزيران، من خلال مقالته "الديمقراطيَّة العمَّاليَّـة" المنـشورة في ("النِّظام الجديد"، عدد 21 حزيران)، حدَّد غرامشي النقاط الجوهريَّـة لمهـام اللجـان العمَّاليَّـة داخـل المـصانع باعتبارهـا "مراكـز الحيـاة البروليتاريَّة" و"منظومات القوَّة البروليتاريَّة" المـستقبليَّة. تـرجمَ بانتظـامٍ

من المنشورات العمَّاليَّة العالميَّة (الرُّوسيَّة، والفرنسيَّة، والإنجليزيَّة، وغيرها) وثائق وشهادات عن حياة المصانع والمجالس العمَّاليَّة.

في تمُّوز ألقي القبض على غرامشي وأرسل لبضعة أيَّام إلى **معتقلات تورينو الجديدة** خلال الإضراب السِّياسي تضامناً مع الجمهوريَّات الشُّيوعيَّة في روسيا وهنغاريا.

في أيلول تشاور أعضاء مؤتمر بولونيا بدعمٍ من هيئة تحرير دوريَّة "النِّظام الجديد" حولَ الانضمام إلى الشُّيوعيَّة العالميَّة.

في تشرين الأوَّل التقى غرامشي في تورينو بِسيلفيا بانكهورست التي نشرت لها دوريَّة "النِّظام الجديد" سلسلةً مِن "رسائل إنكلترا" ترجمها تولياتِّي.

في 6 كانون الأوَّل بدأ مجلس فرع تورينو الاشتراكي نقاشاً حول اللجان العمَّاليَّة، وصادقَ على المعايير المقترحة، وسمَّى لجنةَ دراسةٍ ومتابعة برئاسة تولياتِّي.

بين 15 ـ 17 كانون الأوَّل صادقَ مجلس فوق العادة لغرفة العمَّال في تورينو على المقترحات المراعية لحقوق اللجان العمَّاليَّة.

1920

في كانون الثَّاني ـ شباط، نشر غرامشي في دوريَّة "النِّظام الجديد" (24-31 كانون الثاني) "برنامجَ عمل فرع تورينو الاشتراكي" الذي أعيد فيه انتخاب اللجنة التنفيذيَّة. شاركَ في نشاط "المعهد الثَّقافي" المؤسَّس في تشرين الثَّاني 1919 من قِبَل المجلَّة، عبر إلقاء بعض المحاضرات عن الثَّورة الرُّوسيَّة؛ كما شاركَ في مجلس هيئة "ساردينيا الفتيَّة" من خلال المناظرات والمجادلات الثقافيَّة والسِّياسيَّة. بعد فترةٍ من الزَّمن أسَّسَ في تورينو، مع بييترو تشوفُّو وآخرين، منتدى ساردينيا الاشتراكي.

في 13 نيسان تمَّ إعلان الإضراب العام الذي انضمَّ إليه حوالي 200 ألف عامل من تورينو، غير أنَّ هذا الحراك لم يمتد ليشملَ عموم البلاد.

في 24 نيسان تراجع زخم الإضراب مع النَّصر المحقَّق للصِّناعيِّين، أمَّا مجموع النُّظم واللوائح الدَّاخلية فأصبح من مهام إدارة المنشآت الصِّناعيَّة. إضرابُ نيسان الذي دعمه غرامشي وفريق عمل دوريَّة "النِّظام الجديد" تنكَّرَت له إدارةُ الحزب الاشتراكي.

في 8 أيَّار نشرت دوريَّة "النِّظام الجديد" طلبَ مناقشةٍ في البرلمان تحت عنوان "نحو تجديد الحزب الاشتراكي" بإشراف غرامشي، وذلك في الأيَّام الأولى من صراع عمَّال التَّعدين، والذي عُرِض سابقاً على المجلس الوطني للحزب الاشتراكي الإيطالي (ميلانو 18 ـ 22 نيسان) مِن قِبل ممثِّلي فرع تورينو الاشتراكي.

في 8 ـ 9 أيَّار شاركَ في فيرنتسه بصفة مراقبٍ في مؤتمر فرقة شيوعيِّي بورديغا الممتنعين عن العمل السِّياسي والذين ازداد تنظيمهم قوَّةً على المستوى الوطني في غضون شهور. رأى غرامشي الذي كانت تربطه أواصر قويَّة مع أعضاء الفرقة أنَّ الحزب الشُّيوعي غير قادر على تأسيس نفسِه على قاعدة الامتناع عن العمل السِّياسي.

في حزيران ـ تمُّوز نشب جدالٌ مفتوحٌ بين غرامشي وتاسكا حول مسألة مهام واستقلاليَّة اللجان العمَّاليَّة، حيث دعمَ غرامشي وفريقُ دوريَّة "النِّظام الجديد" مبادرة تأسيس "الجماعات الشُّيوعيَّة لعمَّال المصانع" كقاعدةٍ لتأسيس الحزب الشُّيوعيِ المستقبلي (غرامشي، الجماعات الشُّيوعيَّة، "النِّظام الجديد"، 17 تمُّوز). بعثَ إلى اللجنة التَّنفيذيَّة للشُّيوعيَّة العالميَّة تقريراً حولَ الحراك التُّوريني للجان المصانع، والذي سيُنشَر لاحقاً في الطَّبعات الرُّوسيَّة والألمانيَّة والفرنسيَّة لدوريَّة "الشُّيوعيَّة العالميَّة". ركَّز المؤتمر التَّالي للشُّيوعيَّة

العالميَّة المنعقد بين 19 تمُّوز و7 آب على شروط قبول الأحزاب (التي عُرِفت بشروط النقاط 21). دعا المؤتمرُ الحزبَ الاشتراكيَّ الإيطاليَّ إلى التَّحرُّر من أتباع المذاهب الإصلاحيَّة. على الرَّغم من اختلافه بالرَّأيِ مع الوفد الإيطالي المفوَّض أوضحَ لينين أنَّ تقرير غرامشي "نحو تجديد الحزب الاشتراكي" ينسجم كلِّيّاً مع مبادئ المؤتمر الثَّالث للشُّيوعيَّة العالميَّة.

في آب انفصلَ غرامشي عن تولياتِّي وتِرَّاتشيني رافضاً الدُّخول في القسم الشُّيوعي لفرع تورينو الاشتراكي وجامعاً حولَه زمرةً صغيرةً من المثقَّفين الشُّيوعيِّين المنحازين لشيوعيِّي بورديغا الممتنعين عن العمل السِّياسي. نشرَ مقالته "برنامج النِّظام الجديد" في دوريَّة (النِّظام الجديد، 14 ـ 28 آب).

في أيلول شاركَ في حركة احتلال المصانع، كما انتقل إلى ميلانو لارتياد بعض المنشآت الصِّناعيَّة هناك. في سلسلةِ مقالاتٍ نشرها في طبعة تورينو من صحيفة "إلى الأمام!" نبَّه العمَّال إلى أنَّ فكرة احتلال المصانع بحدٍّ ذاتها هي فكرة بسيطة ووهميَّة ولا يمكن أن تحلَّ مشكلة الاستيلاء على السُّلطة، وأكَّد على ضرورة تشكيل دفاع عمَّالي مسلَّح.

في تشرين الأوَّل دعمَ فكرة دمج الجماعات المختلفة لفرع تورينو الاشتراكي (مِن شيوعيِّين ممتنعين عن العمل السِّياسي، وشيوعيِّين مثقَّفين، وشيوعيِّين انتخابيِّين) في بوتقةٍ واحدة. نشرَ في دوريَّة "النِّظام الجديد" مقالَين عن الحزب الشُّيوعي (4 أيلول و9 تشرين الأوَّل). خلال الأسبوعين الأوَّلين من تشرين الأوَّل شارك بميلانو في الاجتماع المنعقد بين الجماعات ذات التَّوجُّهات المتوافقة تضامناً مع (شروط النقاط 21) للشُّيوعيَّة العالميَّة. تمَّ وضع برنامج علني لفرقة الحزب الشُّيوعي كان غرامشي من بين الموقِّعين عليه، وقد نُشِر في دوريَّة "النِّظام الجديد" في 30 من هذا الشَّهر.

في 28 ـ 29 تشرين الثَّاني شاركَ في ملتقى إيمولا Imola حيث شُكِّلت رسميّاً الشُّعبة الشُّيوعيَّة للحزب الاشتراكي الإيطالي (وعُرِفت باسم "شعبة إيمولا").

في كانون الأوَّل التقى بهنري باربوس أثناء عقد الأخير مؤتمراً في تورينو. توفِّيت أخته إمَّا في غيلارزا إثر إصابتها بالملاريا، فتوجَّه غرامشي إلى هناك لزيارة العائلة.

في 24 كانون الأوَّل صدر العدد الأخير من أسبوعيَّة "النِّظام الجديد". جمعَ بييرو غوبِتِّي مختاراتٍ من كتابات غرامشي لدوريَّة "النِّظام الجديد" ولكنَّها لم ترَ النُّور أبداً. أمَّا إدارة تحرير اليوميَّة الجديدة فأوكِلتْ إلى غرامشي.

1921

في الأوَّل من كانون الثَّاني صدرَ العدد الأوَّل من يوميَّة "النِّظام الجديد" وعلى صفحتها الأولى قول لاسَّال[1] المأثور "قولُ الحقيقة عملٌ ثوريٌّ". فوَّض غرامشي أمرَ النَّقدِ المسرحيِّ والكتابات الأدبيَّة إلى بييرو غوبِتِّي.

في 14 كانون الثَّاني أسَّس مع تْزينو تْزيني وآخرين معهدَ الثَّقافة البروليتاريَّة، كفرعٍ من معهد الثَّقافة البروليتاريَّة في موسكو، وعُيِّن جيوفانِّي كاسالِه، أحدُ مدراء يوميَّة "النِّظام الجديد"، أميناً عامَّاً للمعهد.

---

(1) فرديناند لاسَّال أحد مؤسِّسي مذهب الاشتراكيَّة الألمانيَّة، وِلد عام 1825م، وكانت حركته تنادي بمبدأ التَّضامن مع النِّظام الإقطاعي الحاكم وترى تحرير العمَّال في تحقيق برامج عمل طوباويَّة خياليَّة، توفِّي عام 1864، (م).

بين 15 ـ 21 كانون الثَّاني شارَك في مؤتمر الحزب الاشتراكي الإيطالي المنعقد في ليفورنو. قرَّر أعضاء الشعبة الشُّيوعيَّة في 21 من هذا الشَّهر تأسيس الحزب الشُّيوعي الإيطالي. سُمِّي غرامشي عضواً في اللجنة المركزيَّة.

في 28 كانون الثَّاني كتب غرامشي عن انشقاق ليفورنو مقالاً بعنوان "نكسةٌ ونصرٌ فينيسيٌّ[1]" نُشِرَ في يوميَّة "النِّظام الجديد". عبرَ مناظراته الصحفيَّة خلال هذه الشُّهور هاجمَ غرامشي النِّقابيِّين الكبار والإصلاحيِّين من جهة، وقوى الوسَط الدَّاعية إلى تحقيق الحدِّ الأقصى من البرامج الحزبيَّة الاشتراكيَّة من جهةٍ أخرى، كما نشرَ سلسلةً من المقالات التَّحليليَّة التي تناولت الحركة الفاشيَّة.

في 27 شباط تعرَّف على جوزيٍّه بْرِتْزوليني وحضرَ مؤتمراً له في تورينو عن "المفكِّرين والعمال".

في 20 آذار، في سافونا، شاركَ في المؤتمر الأوَّل للرَّابطة الليقوريَّة[2] المحليَّة للحزب الشُّيوعي الإيطالي.

في 8 أيَّار نشرَ مقالته "رجالٌ من لحمٍ وعظم" مع نهاية الإضراب الطَّويل واللاموفَّق لعمَّال شركة فيات للسَّيَّارات؛ وتمَّ ترشيحه لأوَّل مرَّة لانتخابات 15 أيَّار السِّياسيَّة للحزب الشُّيوعي الإيطالي عن مقاطعة تورينو، لكنَّه لم يُنتخَب. خلال هذا الرَّبيع سافر إلى غاردونه رفقةَ جنديٍّ في الفيلق النَّهري، هو ماريو جيوردانو، لكي يلتقي بغابرييل دانُّونتسو، لكن وفقاً لشهادة نينو دانييلِه، الأمين على أسرار دانُّونتسو في بييمونتِه، فإنَّ هذا اللقاء لم يحدث.

---

(1) نسبةً إلى مقاطعة فينيسيا، (م).

(2) نسبةً إلى مقاطعة ليقوريا في إيطاليا، (م).

في تشرين الأوَّل، عشيَّة المؤتمر الثَّامن عشر للحزب الاشتراكي الإيطالي نشرَ مقالاً بعنوان "المؤتمر الاشتراكي" في يوميَّة ("النِّظام الجديد"، 9 تشرين الأوَّل).

في 18، 19، 20 كانون الأوَّل حضرَ غرامشي في روما الاجتماعَ الموسَّع للَّجنة المركزيَّة للحزب، وتناولَ مع بورديغا وغرانزياداي وسانَّا وتاسكا وترَّاتشيني المسائل المتعلِّقة بقضايا الزِّراعة والنقابات والخطط الموضوعة للعرض على المؤتمر التَّالي للحزب الشُّيوعي الإيطالي.

1922

في 16 شباط ألقى تقريراً شفويّاً على مجلس فرع الحزب الشُّيوعي في تورينو حول مبادئ وخطط الحزب.

بين 20 ـ 24 آذار حضرَ في روما المؤتمر الثَّاني للحزب الشُّيوعي الإيطالي الذي صادقَ بأغلبيَّة الأصوات على ما عُرِفَ بِـ "مسائل روما". اهتمَّ مع تاسكا بالقضايا المتعلِّقة بالمسائل النقابيَّة التي لم تكن مثار جدل ونقاشٍ من قبل. شاركَ في النقاش الدَّائر حول معاهدة العمل. كُلِّف بتمثيل الحزب الشُّيوعي بموسكو في اجتماع اللجنة التنفيذيَّة للشُّيوعيَّة العالميَّة.

بين 27 ـ 29 آذار شاركَ في روما في مؤتمر رابطة الشُّيوعيِّين الشَّباب.

في بداية نيسان ألقى خلال اجتماع فرع الحزب الشُّيوعي في تورينو تقريراً شفويّاً حول مؤتمر روما. سافرَ إلى جنوى لحضور المؤتمر الذي أعلنت عنه القوى الكبرى بهدف استئناف العلاقات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة مع الاتِّحاد السوفييتي. نشرَ بييرو غوبِتِّي في صحيفة "الثَّورة الليبراليَّة" (2 نيسان) دراسةً نقديَّةً حول غرامشي والحركة الشُّيوعيَّة في تورينو.

في 26 أيّار غادرَ غرامشي إلى موسكو وهـو يعـاني ظروفـاً صـحيَّةً صعبة، يصحبه غراتزياداي وبورديغا.

في 23 حزيران وصـلَ إلى موسـكو عـبرَ حـدود لاتفيـا. شـارَكَ في المـؤتمر الثَّـاني للجنـة التنفيذيَّـة الموسَّـعة للـشُّيوعيَّة العالميَّـة (7-11 حزيران)، وأصبح عضواً في تلك اللجنـة. بعـد المـؤتمر نـزلَ لبـضعة شهور في مصحَّة Serebrjanyj bor قرب موسكو حيـث تعـرَّف هنـاك في أيلول على زوجته جوليا شوشت.

بين 1 ـ 4 تشرين الأوَّل خرج المؤتمر التَّاسع عشر للحزب الاشـتراكي الإيطـالي بقـرار طـرد الإصـلاحيِّين وجـدَّدَ انـضمامه إلى الـشُّيوعيَّة العالميَّة.

في 28 تشرين الأوَّل استولى الفاشيُّون على السُّلطة في روما.

في تشرين الثَّاني ـ كانون الأوَّل شارك غرامشي في المـؤتمر الرَّابـع للشُّيوعيَّة العالميَّة (5 تشرين الثَّاني ـ 5 كانون الأوَّل) الـذي ركَّـز علـى القضيَّة الإيطاليَّـة، وتحديـداً علـى مـسألة دمـج الحـزبين الاشـتراكي والشُّيوعي في إيطاليا، والتي أيَّدها زينوفيف بقوَّة، وانتخـبَ غرامـشي عـضواً في لجنـة الـدَّمج. غـير أنَّ مـشروع الـدَّمج لم يـستمر بـسبب المناوئين لتلك الفكرة في الحزب الشُّيوعي الإيطـالي وكـذلك بـسبب اعتقال سِرَّاتي في إيطاليا.

في كانون الأوَّل وقعت مذبحة تورينو الـتي اعتـدى فيهـا الفاشـيُّون على جِنَّارو، شقيق غرامشي ومدير يوميَّة "النِّظام الجديد"، مـا تـسبَّب له بجروحٍ وكدمات.

في شباط، وبينما كان غرامشي في موسكو، أقدمت الشرطة الفاشيَّة في إيطاليا على اعتقال عددٍ من أعضاء اللجنة التنفيذيَّة للحزب الشُّيوعي الإيطالي (من بينهم بورديغا، وغرييكو، وغيرهما)؛ كما صدرت في حقٍّ غرامشي نفسِه مذكَّرة اعتقال.

في آذار، وإثر حملة اعتقالات الشَّهر المنصرم، عمدت اللجنة التنفيذيَّة للحزب الشُّيوعي الإيطالي إلى إعادة تنظيم المؤسَّسات الإداريَّة.

في نيسان ـ أيَّار بعث بورديغا من المعتقَل "نداءً إلى رفاق الحزب الشُّيوعي الإيطالي" ينتقد فيه نهجَ عملِ اللجنة التنفيذيَّة للشُّيوعيَّة العالميَّة، ولا سيَّما علاقتها بالحزب الاشتراكِي الإيطالي، وقد وافق عليه بادئ ذي بدء، وإن كان مع بعض التشكُّك، تولياتِّي وتِرَّاتشيني وسكوتشيمارُّو وغيرهم، فيما عارضه في الشُّهور اللاحقة غرامشي الذي رفض التَّوقيع عليه. غادرَ تِرَّاتشيني إلى موسكو فتكفَّل تولياتِّي بمهام إدارة الحزب في إيطاليا.

بين 12 ـ 23 حزيران شارك غرامشي مع سكوتشيمارُّو وتاسكا وتِرَّاتشيني وفوتا في أعمال المؤتمر الثَّالث للجنة التنفيذيَّة الموسَّعة للشُّيوعيَّة العالميَّة، وتلا خطاباً حولَ القضيَّة الإيطاليَّة. مارست اللجنة التنفيذيَّة سلطتها الشَّرعيَّة في تعيين لجنة تنفيذيَّة جديدة للحزب الشُّيوعي الإيطالي يشارك فيها ممثِّلون عن الأقلِّيَّة اليمينيَّة، وكان من بين أعضائها تولياتِّي وسكوتشيمارُّو وتاسكا وفوتا وفورتيكياري (الذي ما لبث أن استُبدِل بجنَّاري). في موسكو حلَّ تِرَّاتشيني محلَّ غرامشي بسبب إيفاده إلى فيينَّا، وفي آب استقال بورديغا وغرييكو من اللجنة المركزيَّة للحزب الشُّيوعي الإيطالي.

في 12 أيلول، وفي رسالةٍ بعثها إلى اللجنة التنفيذيَّة للحزب نقلَ غرامشي قرار اللجنة التنفيذيَّة للشُّيوعيَّة العالميَّة بإصدار يوميَّة عمَّاليَّة جديدة مقترحاً "الاتِّحاد" اسماً لها، وفي هذه الرِّسالة شرحَ غرامشي للمرَّة الأولى مسألة التَّحالف بين الشَّرائح الاجتماعيَّة الأشد فقراً من الطَّبقة العاملة شمالي البلاد وبين جماهير الفلَّاحين جنوبها.

في 21 أيلول أقدمت شرطة ميلانو على اعتقال أعضاء اللجنة التنفيذيَّة الجديدة للحزب الشُّيوعي الإيطالي، وأدينوا بتهمة التَّآمر على أمن الدَّولة. تمَّت تبرئتهم خلال التَّحقيقات وأخلي سبيلهم بعد ثلاثة شهورٍ من الاعتقال.

بين 18 ـ 26 تشرين الأوَّل أغلِقتْ الدَّعوى القضائيَّة ضدَّ بورديغا وغرييكو وفورتيكياري وسائر زملائهم الشُّيوعيِّين بعد صدور عفوٍ عام.

في تشرين الثَّاني شاركَ غرامشي في مؤتمر البلقان، وصدر القرار بضرورة انتقاله إلى فيينَّا بمهمَّة تمتين العلاقات بين الحزب الإيطالي وباقي الأحزاب الشُّيوعيَّة الأوروبيَّة.

في 3 كانون الأوَّل وصل غرامشي إلى فيينَّا. نزلَ أوَّلَ الأمر في منزل جوزيف فراي، الأمين العام للحزب الشُّيوعي النِّمساوي، ثمَّ في نُزلٍ عائليٍّ (فلوريانغاس 5)، شاركه فيه رفيقه كارلو كودِفيللا. من بين الذين زاروه هناك برونو فورتيكياري وبييترو ترِسُّو. بدأ مراسلاتٍ مكثَّفة مع تِرَّاتشيني وتولياتِّي وليونِتِّي وسكوتشيمارُّو وترِسُّو. مع نهاية 1923 وبداية 1924 استأنف تعاونه الصحفي مع دوريَّة La Correspondance Internationale تحت اسم مستعارٍ هو ج. ماشي G. Masci، حيث تمحورت مقالاته حول الوضع الإيطالي الدَّاخلي والفاشيَّة.

1924

في كانون الثَّاني خطَّط لتأسيس مجلَّة فصليَّة تُعنَى بالدِّراسات الماركسيَّة والثَّقافة السِّياسيَّة، عنوانها "النَّقد البروليتاري"؛ كما خطَّط أيضاً لإصدار سلسلة جديدة من صحيفة "النِّظام الجديد". التمسَ تعاونَ بييرو سْرافًا وتْزينو تْزيني، واقترحَ على هذا الأخير الشُّروع بترجمة مختارات من كتابات ماركس وإنجلز حول المادِّيَّة التَّاريخيَّة.

في شباط تعرَّف على فيكتور سِرجي وكانت له عدَّة لقاءات معه. في التَّاسع من الشَّهر، وفي رسالةٍ بعثها إلى تولياتِّي وتِرَّاتشيني، عرضَ للمرَّة الأولى وعلى نحوٍ علنيٍّ تصوُّرَه عمَّا ينبغي أن يكون عليه الحزب على المستويين الوطني والعالمي؛ وأبلغهما نيَّته العمل على تشكيل فريق إداري شيوعي على مستوى الشُّيوعيَّة العالميَّة. أعاد التَّأكيد على رفضه التَّوقيع على نداء بورديغا.

في 12 شباط صدر في ميلانو العدد الأوَّل من صحيفة "الاتِّحاد. يوميَّة عمَّاليَّة وفلاحيَّة"؛ وفي عدد 22 شباط ظهرت مقالة "قضيَّة ميلانو" التي حدَّد فيها غرامشي النقاط الجوهريَّة للمشكلة الوطنيَّة المتعلِّقة بانتصار الطَّبقة العاملة الاشتراكيَّة الديمقراطيَّة في ميلانو.

في الأوَّل من آذار صدر في روما العدد الأوَّل من "النِّظام الجديد"، كدوريَّة سياسيَّة وثقافيَّة عمَّاليَّة تصدر كل أسبوعين، وكان غرامشي قد أعدَّ الجزء الأكبر من هذا العدد، وقد احتفى في مقاله الافتتاحي، تحت عنوان "الزَّعيم"، بلينين. في العدد الثَّاني (15 آذار) نشر مقالَه "ضدَّ التَّشاؤميَّة"ـ، وفي عدد 12 آذار من La Correspondance Internationale صدر له مقالٌ عن الفاتيكان.

في 6 نيسان انتُخبَ غرامشي نائباً في مجلسِ فِنتو[1] Veneto، بِأفضليَّة 1856 صوتاً من أصل 32383.

في 12 أيَّار عاد غرامشي إلى إيطاليا بعد عامين من الغياب، وفي النِّصف الثَّاني من الشَّهر شارك في المؤتمرِ الوطني الأوَّل للحزب الذي عُقِدَ سرّاً في نواحي كومو، وحضره ممثِّلون عن اللجنة المركزيَّة والمجالس الإقليميَّة. انتقد غرامشي الخطَّ السِّياسيَّ لبورديغا، غير أنَّ الأغلبيَّة العظمى من أعضاء الحزب بقيت إلى جانب اليسار البورديغياني. في هذه الفترة دخل غرامشي في اللجنة التنفيذيَّة للحزب.

في حزيران انتقل إلى روما وأقام في شارع فِسالْيو عند عائلة باسَّارجِه. حلَّ تولياتِّي محلَّ غرامشي كمندوبٍ إلى موسكو لحضور المؤتمر الخامس للشُّيوعيَّة العالميَّة. في العاشر من الشَّهر اغتيل الاشتراكي ماتيوتِّي، وفي نفس اليوم شارك غرامشي في اجتماعات المعارضة البرلمانيَّة واقترح تنفيذ إضراب سياسي عام. في الأسابيع اللاحقة قاد حملةً سياسيَّة تهدف إلى توحيد جميع القوى العمَّاليَّة.

خلال المؤتمر الخامس المنعقد في موسكو (17 حزيران ـ 8 تمُّوز) بدأت الحملة الهادفة إلى بلشفة المنضمِّين إلى الشُّيوعيَّة العالميَّة. تمَّ انتخاب تولياتِّي وبورديغا عضوَين في اللجنة التنفيذيَّة للشُّيوعيَّة العالميَّة.

في النِّصف الأوَّل من تمُّوز شارك غرامشي في النِّقاشات الدَّائرة داخل اللجنة المركزيَّة للحزب حول سياسة الحزب الشُّيوعي الإيطالي ومعارضة الفاشيَّة.

---

(1) إقليم في إيطاليا عاصمته فينيسيا، (م).

في آب، بصفته أميناً عامّاً للحزب، ألقى غرامشي على اللجنة المركزيَّة تقريراً عن "واجبات الحزب الشُّيوعي تجاه أزمة المجتمع الإيطالي الرَّأسمالي" نُشِرَ لاحقاً في "النِّظام الجديد" تحت عنوان "الأزمة الإيطاليَّة" (عدد 1 أيلول).

ـ شاركَ في الاجتماعات الحزبيَّة المنعقدة في تورينو وميلانو. في موسكو أنجبت جوليا الابن الأوَّل لغرامشي: دِلْيو.

في أيلول شرع بإحداث تغييرات في البنية التَّنظيميَّة للحزب على مستوى الخلايا. شارك في الاجتماع السِّرِّي للجنة التنفيذيَّة المنعقد في كابانَّا مارا، كما حضر المؤتمر الإقليمي في نابُولي حيث ألقى تقريراً باسم اللجنة المركزيَّة يهاجم فيه بورديغا.

في تشرين الأوَّل شارك في العديد من المؤتمرات الإقليميَّة التي ناقشت التوجُّه الجديدَ للحزب. في 19-20 من الشَّهر شارك في اجتماع اللجنة المركزيَّة المنعقد بروما، وألقى تقريراً حول الوضع السِّياسي في إيطاليا في ظل استئناف الأعمال البرلمانيَّة.

في 20 تشرين الأوَّل اقترح أعضاء البرلمان الشُّيوعيُّون على المعارضات تشكيل برلمان معارض. غادر غرامشي مع نهاية الشَّهر إلى ساردينيا لحضور مؤتمر للفروع الحزبيَّة في كالياري، وأمضى بضعة أيَّام مع عائلته في غيلارزا.

في كانون الأوَّل انتقل غرامشي إلى ميلانو حيث أمضى بضعة أسابيع.

1925

في الأيَّام الأولى من كانون الثَّاني شارك في الاجتماع السِّرِّي للجنة التنفيذيَّة المنعقد في كابانَّا مارا.

في شباط شارك في تأسيس معهد حزبي للمراسلين الصحفيِّين، وتعرَّف في روما على تاتيانا (تانيا) شوشت، شقيقة جوليا.

في آذار ـ نيسان غادر إلى موسكو للمشاركة في أعمال الدَّورة الخامسة للجنة التنفيذيَّة الموسَّعة للشُّيوعيَّة العالميَّة (21 آذار ـ 6 نيسان).

في 16 أيَّار ألقى خطاباً في مجلس النُّوَّاب هاجم فيه مشروع القانون المتعلِّق بالمؤسَّسات السِّرِّيَّة والذي اقترحه موسوليني وألفرِدو روكُّو. في النِّصف الثَّاني من الشَّهر، عبر تقريرٍ ألقاه على اللجنة المركزيَّة، ركَّز على قضيَّة "بلشفة" الحزب وافتتح الجلسة التَّحضيريَّة للمؤتمر الوطني الثَّالث.

في حزيران، وعبر رسالةٍ إلى صحيفة "الاتِّحاد" مؤرَّخة بِـ1 حزيران، أعلن دامِن، ورِبوسِّي، وفورتيكياري، وغيرهم تأسيس لجنة اتِّفاق داخل الحزب مكوَّنة من أعضاء اليسار ويرأسها بورديغا. في السَّابع من الشَّهر بدأت الصَّحيفة هجوماً عنيفاً على تلك اللجنة.

في الأوَّل من تمُّوز ألقى غرامشي تقريراً على اللجنة المركزيَّة المجتمعة في كابانَّا مارا لمناقشة مبادرة التَّيَّار البورديغياني. اعتبرت الشُّيوعيَّة العالميَّة لجنةَ الاتِّفاق مشروعاً انفصاليَّاً وأمرت بحلِّها. خلال شهري تمُّوز وآب شارك غرامشي في كلِّ أنحاء إيطاليا بالعديد من الاجتماعات التي انعقدتِ لمناقشة الوضع الدَّاخلي للحزب. في آب، التقى في نابُّولي ببورديغا ودار بينهما نقاشٌ طويلٌ في حضور أعضاء الحزب الشُّيوعي. وصلَ مع أونوراتو دامِن وجولز هومبرت ـ دْرُوزِ (ممثِّل الشُّيوعيَّة العالميَّة) إلى اتِّفاق يقضي بضرورة حلِّ لجنة الاتِّفاق تلك.

في آب ـ أيلول أعدَّ مع تولياتِّي المسائل التي ينبغي عرضها على المؤتمر الثَّالث.

في الخريف وصلت جوليا مع طفلهما دِليو إلى روما للقاء غرامشي، حيث عاشت مع شقيقتيها تاتيانا وجِنيا في جادَّة تْراباني.

في 24 تشرين الأوَّل فتَّشت الشرطة غرفة غرامشي في مكـان إقامتـه لدى عائلة باسَّارجِه.

في كانون الثَّاني شارك وألقى تقريراً في المـؤتمر الإقليمـي لميلانـو الذي انعقد سرّاً في مكانٍ بعيدٍ عن المناطق المأهولة.

1926

في كانون الثَّاني شارك في المؤتمر الوطني الثَّالث للحزب الشُّيوعي الإيطالي الذي انعقد في لِيونِه (23 ـ 26 كـانون الثَّـاني) وألقـى تقريـراً عن الوضع السِّياسي العام. تمخَّضت نتائج المؤتمر، بالأغلبيَّة السَّاحقة للأصـوات، عـن تأسـيس مجموعـة إداريَّـة شـيوعيَّة جديـدة بقيـادة غرامشي: 90.8% من الأصوات ذهبت لصالح القـرار، 9.2% لـصالح اليسار (بورديغا)، 18.9% غائبون أو تحفَّظـوا علـى رأيهـم. مـن بـين أعــضاء اللجنــة التنفيذيَّــة الجديــدة كــان غرامــشي، وتوليــاتِّي، وسكوتشيمارُّو، وكاميلَّا رافِرا، ورافاتْزولي، وغيرهم.

في شباط شارك في اجتمـاع اللجنـة الإداريَّـة وفي مناقـشة أوضـاع اللجـان العمَّاليَّـة والفلاحيَّـة والنقابيَّـة. أملـى علـى ريكَّـاردو رافانيـان الحصيلة النِّهائيَّة لمؤتمر لِيونِه تحت عنوان "خمـس سـنواتٍ مـن حيـاة الحزب"، وقد نُشِرتْ في صحيفة "الاتِّحاد" (عدد 24 شباط).

في 14 أيَّار إثر رحيل "ج. م. سِـرَّاتي" نـشرَ غرامـشي في "الاتِّحـاد" مقـالاً بعنـوان "جياتْـشِينْتو مِنـوتِّي سِـرَّاتي". في الأسـابيع اللاحقـة، وبمبادرة من غرامشي، أطلقـت صـحيفة "الاتِّحـاد" بيـانَ تـضامنٍ مـع عمَّال المناجم البريطانيِّين الذين كانوا قد بدأوا إضراباً كبيراً آنذاك.

في 2 ـ 3 آب ألقىٰ على اللجنة الإداريَّة تقريراً حول الأزمة الاقتصاديَّة؛ وفي هذا الشَّهر أمضى غرامشي عطلةً قصيرةً مع ابنـه دِلْيـو في ترافـوي

(التَّابعة لإقليم بولْتزانو). بعدئذٍ عادت جوليا، التي كانت تنتظر الطِّفلَ الثَّاني، إلى موسكو حيث أنجبتْ جوليانو.

في 12 أيلول صادقَ المؤتمر الزِّراعي للحزب المنعقد سرّاً في باري على "توصيات العمل الفلَّاحي" المستلهمة أصلاً من أفكار غرامشي.

في تشرين الأوَّل أرسل غرامشي، باسم المكتب السِّياسي للحزب الشُّيوعي الإيطالي، رسالةً إلى اللجنة المركزيَّة للحزب الشُّيوعي الرُّوسي تتعلَّق بالصِّراعات الدَّائرة داخل الحزب البُلْشفي، وفيها يلفت غرامشي الانتباه إلى الخطر المتمثِّل في أنَّ تلك الصِّراعات قد تنتهي بإلغاء "الدَّور الإداري الذي استحوذ عليه الحزب الشُّيوعي السُّوفييتي برغبةٍ مِن لينين". قوَّى غرامشي حججه تلك برسالةٍ ثانيةٍ قصيرة أرسلها إلى توليانِّي. في نفس الشَّهر كتب مبحثه النَّقدي الذي لم يكتمل "بعض المسائل حولَ القضيَّة الجنوبيَّة". أمام سياسة القمع التي انتهجتها الدَّولة ضدَّ معارضيها اهتمَّت إدارة الحزب الشُّيوعي الإيطالي بالسَّلامة الشخصيَّة لغرامشي ووضعت خطَّةً لإرساله سرّاً إلى سويسرا؛ لكن يبدو أنَّ غرامشي لم يعبأ بتلك الخطَّة.

في الأيَّام الثَّلاثة الأولى من تشرين الثَّاني عُقدَ سرّاً اجتماعٌ للَّجنة الإداريَّة للحزب في فالبولْتشِفِرا قرب جنوى، وكان من بين الحاضرين هومبرت ـ دْروز المكلَّف بتقديم إيضاحات حول المناقشات التي دارت داخل الحزب البُلْشُفي بين الأغلبيَّة والمعارضة. ألقي القبض على غرامشي أثناء حضوره ذلك الاجتماع مِن قبل الشرطة الفاشيَّة وأرغِمَ على العودة إلى روما.

في 8 تشرين الثَّاني وإثر "التَّدابير الاحتياطيَّة الاستثنائيَّة" التي تبنَّاها النِّظام الفاشي ألقي القبض على غرامشي، مع بعض رفاقه الشُّيوعيِّين، وأودِع معتقَلَ رِجينا كولي في عزلةٍ تامَّةٍ وصارمة.

في 18 تشرين الثَّاني، ووفقاً للمادَّة رقم 184 من قانون الأمن العام، حُكِمَ عليه بالنَّفي لمدَّة خمس سنوات، وبُلِّغَ بذلك في اليوم التَّالي. أوَّل الأمر بدا أنَّ منفاه سيكون الصُّومال، لكن بعد أيَّامٍ قليلة اتَّضح أنَّ وجهته ستكون إحدى الجزر الإيطاليَّة.

في 25 تشرين الثَّاني غادرَ معتقلَ رِجينا كولي مع رفاقه من أعضاء الحزب الشُّيوعي ليمضي ليلتين في سجن كارمينه بِنابُّولي، ثمَّ نقِل إلى باليرمو حيث أمضى ثمانية أيَّام، وهناك تمَّ إبلاغه بوجهته الدَّقيقة: جزيرة أوستيكا.

في 7 كانون الأوَّل وصل إلى أوستيكا كواحدٍ من خمسة مُبعَدين سياسيِّين يصلون إلى هناك. خلال إقامته في الجزيرة عاش في منزلٍ خاصٍّ مع بورديغا وكونكا وسباراليني ورفيقين مِن أكويلا. شكَّل مع بعض الأصدقاء ورفاق الحزب معهداً للمبعدين السِّياسيِّين، حيث كان غرامشي مسؤولاً عن الدُّروس التَّاريخيَّة والأدبيَّة، فيما أدار بورديغا الدُّروس العلميَّة. تكفَّل صديقهم بييرو سْرافًا بإرسال الكتب إليهم.

1927

في 14 كانون الثَّاني أصدرت المحكمة العسكريَّة في ميلانو قراراً بالقبض على غرامشي.

في 20 كانون الثَّاني غادرَ أوستيكا متَّجهاً إلى سجون ميلانو. دامت الرِّحلة 19 يوماً تخلَّلتها محطَّاتٌ في سجون وثكنات باليرمو، نابُّولي، كاجانِلُّو، إيسِرْنيا، سولمونا، كاستِلَّمَّاره أدرياتيكو، أنكونا، وبولونيا.

في 7 شباط وصل إلى ميلانو وأودِع زنزانةً مدفوعة الإيجار في سجون سان فيتُّوره القضائيَّة. في التَّاسع من الشَّهر تمَّ استجوابه من قِبل قاضي التَّحقيق إنريكو ماتشيس. أُذِنَ له بقراءة بعض الصُّحف اليوميَّة،

واشترك بمكتبة السِّجن اشتراكاً مضاعفاً يتيح له الحصول على ثمانية كتب في الأسبوع بدلاً من أربعة، كما كانت تصله بعض الكتب والمجلات من خارج السِّجن. سُمِح له بكتابة رسالتين في الأسبوع.

في آذار كتب إلى تاتيانا، شقيقة زوجته، يخبرها بخطَّته البحثيَّة. كان يفكِّر بأربعة مواضيع رئيسة: بحث حول تاريخ المفكِّرين الطليان، دراسة في علم اللغة المقارن، بحث حول مسرح بيراندِلُّلو، ودراسة نقديَّة حول الرواية الشَّعبيَّة؛ وفي هذا السِّياق قرَّر استئناف دراسة اللغات. في العشرين من هذا الشَّهر أعيدَ استجوابه مرَّةً ثانية من قِبل قاضي التَّحقيق ماتشيس.

في نيسان نقِلَ إلى زنزانةٍ جديدة. كابدَ الأرقَ ولم يستطع النَّوم أكثر من ثلاث ساعاتٍ في الليلة.

في أيَّار، ولكي تدعم غرامشي عن قرب، انتقلتْ تاتيانا من روما إلى ميلانو.

في 2 حزيران أعيدَ استجوابه مرَّةً ثالثة من قِبل قاضي التَّحقيق ماتشيس.

في الصَّيف أتى شقيقه ماريو لزيارته في آب، وبعدها بوقتٍ قصير زاره صديقه بييرو سْرافًا. في أيلول أمضى جزءاً من وقته في مطالعة الصُّحف اليوميَّة، وكان يقضي فترة الظَّهيرة في زنزانته متحدِّثاً مع شابٍّ موقوفٍ مِن مونتزا. من أيلول 1927 إلى كانون الثَّاني 1928 كانت له محادثاتٌ متكرِّرة مع تاتيانا.

في تشرين الأوَّل طلب كتباً ومجلاتٍ حول ساردينيا. طلبَ من أمِّه ومن تاتيانا أن ترسلا إليه كتاب "الموجز في علم اللغة الحديث" لِبرتوني وبارتولي. في هذه الفترة علمَ بمرض زوجته جوليا.

في تشرين الثَّاني حلَّ مع غرامشي في زنزانته المحررُ السَّابق في صحيفة "الاتِّحاد" إنريكو تولِّي. طلبَ غرامشي الحصول على أعمال ماكيافِلِّلي؛ ومع نهاية العام تلقَّى زيارةً من رئيس أطبَّاء السِّجن.

1928

في 13 شباط وجَّه رسالةً إلى ماتشيس قاضي التَّحقيق يبلغه فيها عن تآمر أحد أفراد الشرطة.

في 19 آذار تسلَّم غرامشي حكماً بإحالته إلى القضاء أصدرته لجنة تحقيق المحكمة الخاصَّة، ووكَّل المحامي جيوفانِّي آريس من ميلانو للدِّفاع عنه.

في 3 نيسان أرسل مذكَّرةً إلى رئيس المحكمة الخاصَّة، ومع نهاية الشَّهر أُبلِغَ بموعد المحاكمة: 28 أيَّار. توقَّعَ حكماً بالسَّجن لمدَّةٍ تتراوح بين 14 و17 عاماً.

في 11 أيَّار تمَّ نقله مع رفاقٍ آخرين إلى روما في عربة قطارٍ خاصَّةٍ بنقل المساجين؛ وفي اليوم التَّالي أودِعَ سجنَ رِجينا كولي في زنزانةٍ واحدةٍ مع تِرَّاتشيني وسكوتشيمارُّو.

في 28 أيَّار بدأت أمامَ المحكمة الخاصَّة محاكمة غرامشي والفريق الإداري للحزب الشُّيوعي الإيطالي (تِرَّاتشيني، روفيدا، سكوتشيمارُّو، وغيرهم). فيما يتعلَّق بغرامشي شدَّد المدَّعي العام ميكِلِهْ إيسغرو على أنَّه: "لعشرين عاماً ينبغي منع هذا الدِّماغ من العمل".

في 4 حزيران حُكِم على غرامشي بالسَّجن لمدَّة عشرين عاماً وأربعة شهور وخمسة أيَّام.

في 22 حزيران بعد إرساله إلى سجن بورتولونغونه الإصلاحي خضعَ غرامشي لزيارةٍ طبِّيَّةٍ خاصَّة: كان يعاني من فرطِ وجودِ مزمنٍ

لحامض اليوريك في الدَّم، وأوصيَ بإرساله إلى مقرٍّ جزائيٍّ خـاصٍّ في توري (باري).

في 8 تمُّوز بدأت عمليَّة نقله من روما. استغرقت الرِّحلة اثني عـشر يوماً تخلَّلتها محطَّاتُ استراحةٍ طويلةٌ في كاسِرْتا، وبِنِفِنْتو، وفودْجا.

في 19 تمُّوز وصلَ إلى توري حيث أعطـي رقـمَ قيـدٍ 7047. وُضِـعَ في عنبرٍ خاصٍّ مع خمسة موقـوفين سياسـيِّين. سُـمِح لـه بالكتابـةِ إلى عائلته كلَّ أسبوعين. تقدَّم شقيقه كارلو بالإجراءات اللازمـة لنقلِـه إلى زنزانةٍ خاصَّة والسَّماح له بالكتابة.

في آب حصلَ غرامشي على زنزانةٍ خاصَّةٍ بـه تحمـل الـرَّقم 1 مـن الجناح الأوَّل، قريبةٍ من مركزِ الحرس، ما جعلـه دائمـاً تحـت أنظـارِ السَّجَّانين. في الفترة الأولى من إقامتـه في تـوري كـان يتلقَّـى زيـاراتٍ متكرِّرة من كاهنٍ محلِّيٍّ، وفقاً لما ذكره رفاقُه.

في كانون الأوَّل تعرَّض لهجمةٍ مرضيَّة (حـامضِ البـول)، ولقرابـةِ الثَّلاثة شهور كان يمضي السَّاعات المخصَّصة للـتَّنزُّه جالـساً أو متَّكئـاً على ذراع أحد السُّجناء. حلَّت تاتيانا في توري لبضعة أيَّـامٍ قادمـةً مـن ميلانو، حيث التقت عدَّة مرَّاتٍ بغرامشي.

1929

في كانون الثَّـاني حـصلَ علـى إذن الكتابـة في زنزانتـه. قـرَّر البـدء بقراءاتٍ منظَّمة والتَّعمُّق بمسائل محدَّدة، طالباً الكتب اللازمة لـذلك. استهلَّ الأمرَ بالقيام ببعض التَّرجمات.

في شباط بدأ بكتابة ملاحظاتٍ ومذكَّراتِ المجلَّد الأوَّل مـن مؤلَّفـه "دفاتر السَّجن"، وتحديداً بتاريخ 8 شباط 1929.

في آذار حدَّدَ لتاتيانا بدقَّة خطَّة مشروعه البحثي: التَّاريخ الإيطالي في القرن التَّاسع عشر، وتحديداً: تشكُّل وتطوُّر التَّيارات الفكريَّة؛ نظريَّة وتاريخ فن التَّأريخ؛ الأمركة والفوردِيانيَّة[1].

في نيسان تلقَّى زيارةً مِن تاتيانا.

في حزيران طلب من تاتيانا أنباءً عن مصير المعروضِ الذي أرسله تِرَّاتشيني إلى محكمة النَّقض عقبَ إصدار أحكام المحكمة الخاصَّة. كذلك طلبَ لوائح القرارات البرلمانيَّة مع النَّصِّ الاختزاليِّ للمناقشات التي جرت حول المعاهدة.

في آب وضع مشروعاً لدراسةٍ تحليليَّة للنَّشيد الخامس من جحيم دانتي.

في تشرين الثَّاني تلقَّى زيارةً من شقيقه كارلو. ترجمَ عن الألمانيَّة وقرَّر التَّعمُّق في دراسة اللغة الرُّوسيَّة.

في كانون الأوَّل انتقلت تاتيانا إلى توري، حيث أقامت هناك حتَّى تمُّوز 1930. كانت لها لقاءاتٌ عديدة مع غرامشي.

1930

في شباط طلب غرامشي من شقيقه كارلو أن يدبِّر له أمر الحصول على نسخة من حكم المحكمة الخاصَّة الصَّادر بتاريخ 4 حزيران 1928؛ وفي نيسان حصلَ على تلك النُّسخة.

---

(1) نسبةً إلى الصِّناعي الأمريكي في مجال صناعة السَّيَّارت هـ. فورد (1863 ـ 1947)، ويشير هذا المصطلح إلى السِّياسة الصِّناعيَّة التي تقوم على الابتكار التكنولوجي والإنتاج العالي ذي المعايير الموحَّدة والاستدامة الطَّويلة والأجور العالية نسبيّاً، (م).

في حزيران زاره في السِّجن كلٌّ من تاتيانا وشقيقه جنَّارو المرسَل من قِبل تولياتِّي لأجلِ وضعِه في صورةِ الخلافات الحاصلة بين أعضاء الفريق الإداري للحزب والتي بلغت أوجها بطردِ ليونتِّي، وتْرِسُّو، ورافاتْزولي.

في تمُّوز استفاد غرامشي من قرار عفوٍ جزئيٍّ عن عامٍ وأربعة شهورٍ وخمسة أيَّامٍ من مدَّة محكوميَّته. بلغه أنَّ زوجته جوليا دخلت إحدى المصحَّات. قابلَ مرَّةً أخرى شقيقه جنَّارو.

في آب كلَّفَ شقيقَه كارلو القيامَ بالإجراءات القانونيَّة اللازمة بغية الحصول على الكتب التي ألَّفها الشُّيوعي Lev Trotzkij (1879–1940) بعد طرده من الاتِّحاد السوفيتي؛ غير أنَّ الرِّسالة بقيت في حوزةِ مدير السِّجن.

في أيلول قدَّم التماساً لأجل الحصول على الكتب التي كان قد طلبها سابقاً من أخيه، وحصل على الموافقة. بين نهاية أيلول وبداية تشرين الأوَّل تلقَّى زيارةً من شقيقه كارلو.

في تشرين الثَّاني كابدَ الأرق، ويعود ذلك في ناحيةٍ منه إلى ظروف الحياة في المعتقل (ضوضاء ليليَّة، وغير ذلك).

في تشرين الثَّاني ـ كانون الأوَّل من نهاية العام، ومع وصول بعض الرِّفاق الحزبيِّين إلى توري (تولِّي، ريبولدي، سكوكيا، وغيرهم) شكَّلَ غرامشي ـ الذي كان قد أطلق في الشُّهور السَّالفة خلال السَّاعات المخصَّصة للتنزُّه حواراتٍ سياسيَّةً مع رفاق آخرين ـ حلقةً تنظيميَّة لمناقشة مسائل من قبيل: المفكِّرون والحزب؛ المسألة العسكريَّة والحزب؛ المجلس التَّأسيسي. في 1928 ـ 1929 تخلَّت الشُّيوعيَّة العالميَّة عن خطَّة "الجبهة الموحَّدة"، واتَّهمت الاشتراكيَّة الدِّيمقراطيَّة بالرَّجعيَّة (نظريَّة "الاشتراكيَّة الفاشيَّة")، وقد ناصرَ الحزب الشُّيوعي الإيطالي تلك التَّوجُّهات، وتوقَّعَ لإيطاليا تغييراتٍ راديكاليَّة في الصِّراع الطَّبقي وأزمةً وشيكةً للنِّظام الفاشي. في المقابل توقَّع

غرامشي مرحلةً "ديمقراطيَّة" واقترح على المجلس التَّأسيسي كلمةَ السِّرِّ. هذه الأوضاع حرَّضتْ ردودَ أفعالٍ لدى بعض الرِّفاق الحزبيِّين في المعتقَل، فعلَّق غرامشي النِّقاشات.

1931

في شباط التمس أخباراً عن البروفسور كوزمو.

في آذار تلقَّى زيارةً من شقيقه كارلو.

في نيسان، في موقعٍ بين كولونيا ودوسِلْدورف، انعقد المؤتمر الرَّابع للحزب الشُّيوعي الإيطالي.

في أيَّار، خلال حواراته مع الرِّفاق الحزبيِّين، ومع احتمال اندلاع ثورة شيوعيَّة في إيطاليا أكَّد على حتميَّة المرحلة الدِّيمقراطيَّة.

في حزيران حصل على بعض أعمال ماركس، وعلى خلاصة "علم الاقتصاد" عن الخطَّة الخمسيَّة الأولى للاتحاد السوفييتي.

في تمُّوز سُمِح له بالكتابة إلى أقربائه كلَّ أسبوعٍ، بدلاً من أسبوعَين.

في آب تعرَّض غرامشي لأوَّل أزمة صحِّيَّة خطيرة. (في السَّاعة الواحدة مِن صبيحة الثَّالث من آب [...] تقيَّأتُ دماً على نحوٍ مفاجئ). جاء شقيقه كارلو للقائه. كذلك حلَّ صديقه سْرافًا في توري، ولكن لم يُسمَح له بزيارة غرامشي.

في أيلول أرسلَ إلى تانيا مسوَّدَة دراسته النَّقديَّة للنَّشيد الخامس من الجحيم، لكي تسلِّمها بدورِها للبروفسور كوزمو.

في تشرين الأوَّل أرسل التماساً إلى رئيس الحكومة بغية الحصول على إذنٍ بمواصلة قراءة المجلَّات التي كان قد اشترك فيها. في كانون الأوَّل حصل على موافقةٍ جزئيَّةٍ بذلك.

1932

في هذا العام طُرِحت فكرة تبادل المعتقلين السِّياسيِّين بين الاتِّحاد السوفييتي وإيطاليا؛ إلَّا أنَّ هذا المشروع الذي لاقى قبولاً من غرامشي لم يتحقَّق على أرض الواقع.

في أيَّار تلقَّى زيارةً من شقيقه كارلو.

في آب اقترحت تاتيانا على غرامشي أن يزوره طبيبٌ مؤتمَن. كتب غرامشي إلى تاتيانا (29 آب): "لقد بلغتُ نقطةً أحسبُ معها أنَّ قوى احتمالي موشكةٌ كلِّيّاً على الانهيار، ولا أعلم عواقبَ ذلك".

في 15 أيلول قدَّمت تاتيانا، دون علم غرامشي، التماساً إلى رئيس الحكومة تطلب فيه السَّماح لطبيبٍ مؤتمَنٍ بزيارة غرامشي. في تشرين الأوَّل زاره طبيب السِّجن.

في تشرين الثَّاني، عقب تدابير العفو العام والعفو الجزئي بمناسبة مرور عشر سنوات على النِّظام الفاشي، خُفِّض الحكم على غرامشي إلى 12 سنة و4 شهور. انطلاقاً من هذه المستجدَّات القضائيَّة أخذ بييرو سْرافًا على عاتقه خلال الشُّهور اللاحقة العمل على أن يحصل غرامشي على إطلاق سراحٍ شرطيٍّ، لكنَّ السُّلطات أصرَّتْ على أن يقدِّم غرامشي طلبَ استرحام. بأمرٍ من المدَّعي العام في توري أُخْضِعَ المعتقلون السِّياسيُّون لنظام حبسٍ انفراديٍّ، لكن بالتَّواطؤ مع أحد السَّجَّانين راوغَ غرامشي الطَّوق المضروب عليه واستأنف نقاشاته مع الرِّفاق (بِرْتيني، فونتانا، تْرومبِتّي، وآخرين).

في 30 كانون الأوَّل توفِّيتْ في غيلارزا والدةُ غرامشي؛ النَّبأ الذي لم يُبَلَّغْه غرامشي إلَّا بعد وقتٍ طويل.

في كانون الثَّاني انتقلت تاتيانا إلى توري، حيث بقيت هناك حتَّى حلول الصَّيف، باستثناء رحلات قصيرة كانت تقوم بها إلى روما. قابلتْ غرامشي عدَّة مرَّات.

في شباط تسلَّمَ المدَّعي العام التماسَ تاتيانا وسمح بخضوع غرامشي في المعتقَل لزيارة طبيبٍ مؤتمَن.

في 7 آذار تعرَّض لنوبةٍ خطيرةٍ ثانية (تحديداً يوم الثُّلاثاء الفائت، مع بزوغ الفجر، فيما كنت أنهض من السَّرير سقطتُ أرضاً دون أن أستردَّ القدرة على النُّهوض ثانيةً بالاعتماد على نفسي). لحوالي أسبوعين، ليلاً ونهاراً، ووفق نوباتٍ عنايةٍ متكرِّرة تدوم كلٌّ منها اثنتَي عشرة ساعة، تناوب كلٌّ من غوستافو تْرومْبِتِّي، رفيق حزبي من بولونيا، وعاملٍ من غروسِتّو، على العناية بغرامشي. في هذه الفترة زارت تاتيانا غرامشي الذي أعلمها بفكرة انتقاله إلى عيادةِ سجنٍ آخر. أقام تْرومْبِتِّي في زنزانة غرامشي كمساعدٍ ومسعفٍ له حتَّى تشرين الثَّاني. سُحِبَتْ من غرامشي مؤقَّتاً رخصة الكتابة التي أعطيت له في وقتٍ سابق.

في 20 آذار زاره في السِّجن البروفسور أومبرتو أركانْجِلي الذي ألحَّ على غرامشي بضرورة أن يتقدَّم بطلب استرحام، لكن بسبب معارضة غرامشي، وبناءً على طلب تاتيانا وسْرافًا، حُذِفَتْ الإشارة إلى ذلك من شهادةِ أركانْجلي التي جاء فيها: "لا يمكن لغرامشي أن يصمد طويلاً في ظلِّ الظُّروف الحاليَّة؛ أرى أنَّه لا بدَّ من نقل غرامشي إلى أحد المستشفيات الأهليَّة أو إلى مستشفىً خاصٍّ إذا ما تعذَّرَ حصوله على إطلاق سراحٍ شرطيٍّ".

في 18 نيسان تلقَّى زيارةً من البروفسور فيليبُّو سابوريتو، مفتِّش الصحَّة.

في أيَّار ـ حزيران نُشِرَ تصريح أركانْجِلي مِن قِبلِ Humanité (أيَّـار) و "النَّجـدة الحمـراء" (حزيـران). في بـاريس شُـكِّلتْ لجنـة للمطالبـة بإطلاق سراح غرامشي وضحايا الفاشيَّة كان من بـين أعـضائها رومـان رولان وهنري باربوس. خصَّصت دوريَّة "العمـل ضـدَّ الفاشـيَّة" جـزءاً كبيراً من عدد حزيران للاحتفاء بشخصيَّة غرامشي؛ كما نشرت دوريَّـة "العدالـة والحريَّـة" بتوقيـع "فابريتـسيو" (U. Calosso) دراسـةً حـول غرامشي و"النِّظام الجديد" (آب).

في تمُّوز طلـب مـن تاتيانـا أن ترسـل علـى وجـه الـسُّرعة الوثـائق اللازمة لنقله إلى عيادة سجنٍ آخر. تلقَّـى زيـارةً مـن أحـد رقبـاء إدارة السِّجن. تمَّ نقله إلى زنزانةٍ جديدة بعيداً عن الضَّوضاء.

في آب تلقَّى غرامشي في توري زياراتٍ عديدة من تاتيانا وكـارلو. انـشغلَ كارلو كليًّا بإجراءات الوثائق القانونيَّة اللازمة لنقل غرامشي من توري.

في تشرين الأوَّل تمَّت الموافقة على التماس نقل غرامشي مـن تـوري. الوجهة الجديدة التي اختارتها إدارة الشرطة هي عيادة الطَّبيـب جوزبِّـه كوزومانو في فورميا. المحكمة الخاصَّة رفضت الطَّعن المتعلِّق بتطبيـق مرسومي العفو العام والعفو الجزئي الصَّادرين في تشرين الثَّاني 1932.

في 19 تشرين الثَّاني غادر غرامشي سجن توري حيـث نُقِـلَ مؤقَّتـاً إلى عيادة سجن تشيفيتافِكْيا، وزارته تاتيانا هناك.

في 7 كانون الأوَّل نُقِل وأودِعَ، وهو لا يزال بعـد محتجَـزاً، عيـادةَ الطَّبيب كوزومانو في فورميا. واظبـت تاتيانـا علـى زيارتـه هنـاك كـلَّ أسبوعٍ؛ وخلال إقامته تلك تلقَّى زياراتٍ مـن شـقيقه كـارلو وصـديقه سْرافَّا. استأنف قراءاته، غير أنَّ ظروفه الصِّحيَّة أعاقتـه لـبعض الوقـت عن الكتابة.

1934

في تمّوز زارَه البروفسور فيتُّوريو بوتشينلّلي مـن رومـا (12 تمّـوز). وفي الخامس عشر من هذا الشّهر جدّد طلَـبَ نقلِـه إلى عيـادةٍ أخـرى لا سيَّما مع قرب خضوعه لعمليَّة فتقٍ جراحيَّة.

في أيلول استؤنفت ببأسٍ ونشاطٍ، خارج إيطاليا، الحملة المطالبة بـإطلاق سراح غرامشي: طبع رومان رولان مؤلَّفاً صغيراً عن شخصيَّة غرامشي.

في تـشرين الأوَّل تقـدَّم غرامـشي بطلـب إطـلاق سـراحٍ شـرطيٍّ مستشهداً بالمادَّة رقم 176 من القانون الجزائي والمادَّة 191 مـن نظـام المعتقلات (24 أيلـول). في 25 تـشرين الأوَّل صـدر مرسـوم إطـلاق سراح غرامشي شرطيّاً؛ وبعد يـومين مـن ذلـك التَّـاريخ خـرجَ للمـرَّة الأولى من عيادة كوزومانو تصحبه نسيبته تاتيانا.

1935

في نيسان طلب غرامشي نقله إلى مـصحَّة "Poggio sereno" "التَّـل الرَّائق" في فِيِيْسولِه.

في حزيران تعرَّض لأزمة صحيَّة جديدة. جدَّد طلبَ نقلِه من عيـادة كوزومانو.

في 24 آب غادر عيادة كوزومانو، يصحبه البروفـسور بوتـشينلّلي، إلى مصحَّة كوزيزيسانا "Quisisana" في روما. خلال الشُّهور التَّاليـة لم تتوقَّف تاتيانا عن مساندته وتقديم كلِّ سبلِ العون له، فيما كـان يتلقَّـى زياراتٍ متكرِّرة من شقيقه كارلو. كـذلك، خـلال إقامتـه في المـصحَّة تلقَّى زيارةً من صديقه بييرو سْرافَّا.

1936

استأنف تبادل الرَّسائل مع زوجته وابنيه.

في نيسان مع نهاية مـدَّةِ الحريَّـةِ الـشَّرطيَّة، حـصل غرامـشي علـى إطلاق سراحٍ تامٍّ. قرَّر أن يبتعدَ إلى سـاردينيا لتكـون معتزلَـه ومـستقرَّه الأخير. داهمته الأزمة الصِّحِّيَّة بغتةً عشيَّةَ الخامس والعشرين مـن نيـسان، حيث أصيب بنزيفٍ دمويٍّ في الدِّماغ. رحل غرامـشي بعـد يـومين في السَّاعات الأولى من صبيحةِ السَّابع والعشرين من نيسان. جرت مراسم التَّشييع ظهيرة الثَّامن والعشرين. ووريَ رمادُ غرامـشي، المحفـوظ في جرَّةٍ (مَرمَدةٍ)، الثَّرى في مدافن بلديَّة فِرانو؛ ثمَّ نقِلَ بعـد التَّحريـر إلى مقبرة الإنجليز في روما. خارج إيطاليا، أقام الرِّفاق الحزبيُّـون وجميـع التَّيَّارات المناهضة للفاشيَّة مراسم تكـريمٍ لـذكرى أنطونيـو غرامـشي: اللجنة التنفيذيَّة للشُّيوعيَّة العالميَّة، دوريَّة "صـوت الطِّليـان"، صـحيفة "الاتِّحاد" السِّرِّيَّة، صحيفة "صرخة الشَّعب"، دوريَّة "العدالة والحرِّيَّة"، كاميللو بِرنْري من راديو برشـلونة، رومـان رولان عـبرَ مؤلَّـفٍ صـغيرٍ ضمَّ شهادات بالميرو تولياتِّي، كـلاود أفِلـين، جـين كاسُّـو، مارسـل كوهين، رينيه ماوبلانك، تشارلز فيلـدراك، أندريـه فيـولِّيس، هنـري والن، إديث ثوماس، أوبتن سينكلير، وكارلو روسِّلِّلي.

الكتاب الأوَّل

شجرةُ القنفذ

الرّسالة I

مغامرةٌ ميلاديّة

عزيزتي تانيا،

أرغب اليوم أن أقصَّ عليكِ، وعلى دِلْيو وجوليانو، أحدوثةً[1] ميلاديَّةً وقعت في صباي، علَّها تبهجكم وتعطيكم ملمحاً وصفيّاً عن الحياة في نواحينا.

كنتُ آنذاك في الرَّابعة عشرة من عمري، طالباً في السَّنة الثالثة من المرحلة الإعداديَّة في سانتو لوسورجو التي تبعد عن بلدتي حوالي ثمانية عشر كيلو متراً.

لكي أكسب أربعاً وعشرين ساعةً مع العائلة انطلقتُ مع فتىً آخر سيراً على الأقدام عصرَ الثَّالث والعشرين من كانون الأوَّل، بدلاً من انتظار المركبة العموميَّة حتَّى صبيحة اليوم التَّالي.

مشينا، ومشينا، إلى أن بلغنا عندَ منتصف الرِّحلة بقعةً مهجورةً ومنعزلةً كليّاً. يساراً، على بعد حوالي مائة مترٍ عن الطَّريق، امتدَّ صفٌّ من شجر الحور مع أكماتٍ من بطم اللانتسك. على حين غرَّةٍ انطلقتْ فوق رأسينا زخَّةُ رصاصٍ من بندقيَّة: القذائف صفرت على ارتفاعٍ يقاربُ العشرة أمتار. حسبناه طلقاً ناريّاً عرضيّاً وواصلنا المسير لا يعكِّرُ صفوَ بالنا شيء؛ فإذا بزخَّةٍ ثانيةٍ فثالثةٍ أخفض من سابقتهما

---

(1) الأحدوثةُ مطابقةٌ تماماً للحقيقة، ولا علاقة لها أبداً بقطَّاعِ الطُّرق.

تلفتان انتباهنا في الحال إلى أنَّنـا ملاحَقـان، فارتمينـا إذَّاك في مجـرى مياه المطر على حافَّة الطَّريق، ومكثنا مسطَّحَين كتلةً واحدة.

ما إن حاولنا النُّهوض حتَّى بوغتنا بزخَّةٍ أخـرى، وبقينـا علـى هـذه الحال لنحو ساعتين من الزَّمن، مُطارَدين بدزِّينةٍ من الزَّخِّ النَّاريِّ الـذي كان ينصبُّ نحونا في كلِّ مرَّةٍ نحاول فيها العودة إلى الطَّريق، حيث لم يكن أمامنا إلا أن نبتعدَ زاحفَين. لا شكَّ أنَّهـا كانـت ثلَّـةً مـن الظُّرفـاء الرَّاغبين بترويعنا لأجل اللهو فحسب، لكن يا لها مـن مزحـةٍ ميلاديَّـةٍ خفيفة الظِّلِّ، أليس كذلك؟

وصلنا إلى المنزل في جُنحِ الليل، متعبَين وممرَّغين بالوحل بما فيـه الكفاية، ولم نقصُصْ حكايتنا على أحدٍ لئلَّا نخيف العائلة؛ بيدَ أنَّنـا لم نخفْ كثيراً، ذلك أنَّنا خـلال أعطـال عيـد المِرْفَـع الـتي تلـتْ كرَّرنـا الرِّحلة ذاتها دون أيِّ حادثٍ يُذكَر.

أعانقكِ بحنانٍ.

أنطونيو

الرِّسالة II

ماذا أطمح أن أفعل من أمورٍ عظيمة الشَّأن؟

عزيزتي تانيا،

هو ذا عامٌ جديدٌ قد ابتدأ.

ينبغي الشُّروع بالتَّخطيط لحياةٍ جديدة، كما درجت العادة: لكن مع أنَّني فكَّرت مطوَّلاً بتلك الخطَّة، إلا أنَّني لم أنجح بعد بتنظيمها. لطالما شكَّل الأمرُ مشقَّةً كبيرةً لي في حياتي، منذ السِّنين الأولى لنشاطي الفكري.

كلَّ عامٍ في مثل هذه الأيَّام كانوا يقرِّرون لنا في المدارس الابتدائيَّة كموضوعٍ للتَّعبير الأدبي المسألةَ التَّالية: "ما أنتم فاعلون في حياتكم؟". مسألةٌ عويصةٌ حللتها لأوَّل مرَّةٍ، في الثَّامنة من عمري، مركِّزاً خِياري على مهنة جرِّ عربات التَّحميل. كنت أرى أنَّ الحمَّالَ يجمعُ في شخصِه كلَّ صفاتِ الإفادةِ والإمتاع: يُعمِلُ السَّوطَ ويقودُ الجياد، وفي نفسِ الوقتِ ينجزُ عملاً يرفعُ من قدرِ الإنسان ويعطيه خبزه كفافَ يومِه.

بقيت وفيَّاً لذلك الخيار في العام التَّالي أيضاً، لكن لأسبابٍ أحسبُها بيِّنة. لو كنتُ صادقاً، لقلتُ إنَّ طموحي الأقوى كان أن أصبحَ حاجباً لدى قاضي الصُّلح. لماذا؟ لأنَّه في ذلك الغام وفدَ إلى بلدتي كحاجبٍ لدى قاضي الصُّلح سيِّدٌ عجوزٌ يمتلك كُلَيباً أسودَ في غاية اللطف، وكانَ يُلبسه دوماً بأناقةٍ فائقة: عقدةٌ حمراء على الذَّيل، نسيجٌ مطرَّزٌ على الظَّهر، طوقٌ برَّاقٌ، لجامٌ في الرَّأس كذلك الذي للأحصنة.

لم أفلح بتاتاً في فصل صورةِ الكُلَيب عن صورة صاحبه ومهنته. مع ذلك عدلتُ، بفائق الأسى، عن هدهدة نفسي بـذلك المطمـح الـذي شدَّما أغواني. لقد كانت مهنةً تتَّسم بمنطقيَّـةٍ فائقـةٍ للحـد وباسـتقامةٍ أخلاقيَّة تجعلُ أبطالَ الواجبِ يتـضرَّجون خجـلاً. بلـى، لقـد اعتـبرتُ نفسي غير لائقٍ بأن أصبح حاجباً لقاضـي الـصُّلح، وكـذا بـأن أمتلـك كلاباً على هذا القـدر مـن الرَّوعـة: حتَّـى أنَّـني لم أكـن أحفـظ مـوادَّ الدُّستور الملكي الأربع والثَّمانين! هكذا بالضَّبط كان الأمر.

كنت قد اجتزت المرحلة الابتدائيَّة الثَّانية (عندما نزل عليَّ الـوحي الأوَّل بالفضائل المدنيَّـة لمهنـة الحمَّـال!) وكنـت أفكِّـر خـلالَ شـهر تشرين الثَّاني بالتَّقدُّم لامتحانات الإعفاء لكي أقفز إلى المرحلة الرَّابعـة متجاوزاً الثَّالثة: كنتُ متيقِّناً من قدرتي على فعلِ الكـثير، لكـن عنـدما وقفت في حضرة مدير التَّربية لأقدِّم له التماساً قانونيَّاً بـذلك، بـاغتني سؤاله: "هل تعـرف مـوادَّ الدُّسـتور الأربـع والثَّمـانين؟". لم أكـن قـد فكَّرت حتَّى بوجود مثل هذه المواد: كنتُ مقتصِراً على دراسـة المفـاهيم المتعلِّقة بـ"حقوق وواجبات المواطن" المقرَّرة ضمن المنهاج المدرسي.

كان ذلك إنذاراً رهيباً لي، أثَّر فيَّ قدر تأثير يوم العشرين من أيلـول السَّالف عندما شاركتُ للمرَّة الأولى في الحفل التَّـذكاري، وفي يـدي سراجٌ فينيسيٌّ، ورحت أصرخ مع الآخرين: "عاش أسدُ كابريا! عـاش ميِّتُ سـتالين" (لا أذكـر أكنَّـا نـصرخ "ميِّـت" أم "نـبيِّ" سـتالين: ربَّمـا صرخنا بالاثنين معاً، لأجل التَّنويع)، كمـا لـو أنَّـني نجحـت حقَّـاً في الامتحان وظفرت بالوثائق القانونيَّة لحقِّ الانتخـاب، وصـرتُ مواطنـاً فاعلاً وكاملاً. لكن بدلاً من ذلك كنت جاهلاً ببنود الدُّستور تلـك. أيُّ مواطنٍ كنته آنذاك؟ وكيف أتتني الجرأة على التَّطلُّـع بطمـوحٍ كـبيرٍ إلى أن أصبح حاجباً لقاضي الصُّلح وأن أمتلك كلباً بعقدةٍ ونـسيجٍ مطـرَّزٍ؟

حاجبُ قاضي الصُّلح ليس إلا عجلةً صغيرةً في الدَّولة (أمَّا أنا فكنت أحسبه عجلةً هائلة)؛ إنَّه خازنُ القانون وحارسُه، حتَّى ضدَّ الطُّغاة المحتمَلين الذين يفكِّرون برفسِه. وكنتُ أنا جاهلاً بموادِّ الدُّستور الأربع والثَّمانين!

هكذا ضاقت الآفاق عليَّ، ومرَّةً أخرى حرَّكتْ مشاعري الفضائلُ المدنيَّة للحمَّال، الذي يمكنه برغم كلِّ شيءٍ أن يمتلك كلباً، ولئن كان من غير عقدةٍ ونسيجٍ مطرَّز. انظري كيف أنَّ الخططَ الموضوعة مسبَّقاً، وفق منهجٍ صارمٍ للغاية ومتمسِّكٍ بالصِّيغ الثَّابتة، تتناطحُ، متهشِّمةً على جدارِ الواقع الصَّلب، حين يمتلك المرء وعياً متيقِّظاً بالواجب!

أعانقك

أنطونيو

الرِّسالة III

عصفورا الدُّوري الفتيَّان

عزيزتي تانيا،

سأقصُّ عليكِ حكايةَ عصفوريَّ.

فلتعلمي إذن أنَّ لديَّ عصفورَ دوريٍّ، وكنتُ قبلُ قد امتلكتُ واحداً آخر لكنَّه مات، مسموماً على ما أعتقد من حشرةٍ ما (صرصارٍ أو ألفيَّةِ أرجلٍ). كان الدوريُّ الأوَّل أظرفَ بكثيرٍ من الحالي. كان فائقَ الاعتداد بنفسه ومتوقِّداً حيويَّةً وعافية. أمَّا الدُّوريُّ الحاليُّ فحيِيٌّ جدّاً، خانعُ النَّفْسِ وفاقدٌ لروحِ المبادرة.

الأوَّلُ بسطَ في الحال سيادته على الزنزانة. استولى على كلِّ المجاثم العليا الموجودة فيها وكان يجثم في أَبَّهةٍ لبعض الوقت كيما يتلذَّذ بذلك السَّلام المهيب. كان الصُّعود إلى سِدادةِ قارورةٍ من مشروب التَّمر الهندي شغلُه الملِحُّ والثَّابت: وبسبب ذلك سقط ذاتَ مرَّةٍ في إناءٍ مليءٍ ببقايا القهوة وأوشك أن يغرق.

ما أحببته في ذلك الدُّوريِّ هو تأبِّيه على أن يُلمسَ. كان يهتاجُ بضراوةٍ، ناشراً جناحيه وناقراً يدي بشكيمةٍ كبيرة. لقد روِّض، ولكن دون رفع الكلفةِ تماماً. الغريبُ هو أنَّ أُلفتَه النِّسبيَّة لم تكن تدريجيَّةً، وإنَّما مباغِتة. كان يتنقَّل في فضاء الزنزانة، لكن دوماً على الطَّرف الأقصى من الجهة المقابلة لي. كنتُ لكي أستميله أعرضُ عليه ذبابةً في علبة ثقاب؛ كان يرفض أخذها ما لم أتنحَّ بعيداً. ذاتَ مرَّةٍ وضعت له في العلبة خمس أو ستَّ ذباباتٍ بدلاً من

واحدة؛ فإذا به قبل أن يهمّ بأكلها يشرع بالرَّقص حولها بجنونٍ ولثوانٍ عديدة؛ ودائماً كانت تتكرَّر هذه الرَّقصة احتفاءً بالوفرةِ الذُّبابيَّة.

ذات صباحٍ، حالما عدتُ من نزهتي[1]، ألفيتُ الدُّوريَّ على مقربةٍ كبيرةٍ منِّي؛ ومُذَّاكَ لم ينفصل أبداً عنِّي، بل بقي يتزلَّفُ إليَّ، محدِّقاً بي باهتمامٍ ومقبلاً عليَّ بين حينٍ وآخر ينقرُ حذائي لكي يستحثَّني على إعطائه شيئاً. لكن أبداً لم يأذنَ لي أن أمسكه بيدي دون أن يهتاج ويحاول من فورهِ التَّملُّص منها. مات ببطء، حيث أصيب بلدغةٍ فجائيَّةٍ في المساء، عندما كان مختبئاً تحت المائدة الصَّغيرة، وكمثلِ طفلٍ صغيرٍ راح يزعق، لكنَّه لم يمت قبل نهارِ اليوم التَّالي: لقد شُلَّ جانبُه الأيمن، وكان يجرجرُ نفسَه بمشقَّةٍ لكي يأكلَ ويشرب، ثمَّ فاضت روحُه فجأةً.

على النَّقيض من ذلك، فإنَّ الدُّوريَّ الحاليَّ أليفٌ إلى حدٍّ مثيرٍ للغثيان؛ يحبُّ أن يُزَقَّ الطَّعامَ في منقارِه، ولئن كان قادراً على إطعام نفسه على أتمِّ وجه؛ ترينه يعتلي حذائي ويستقرُّ في طيَّةِ تُبَّاني؛ حتَّى إذا ما تمكَّن من جناحيه بكاملهما طارَ إلى ركبتي؛ ويبدو أنَّه يحبُّ ذلك المستقرَّ لأنَّه كلَّما بسطَ جناحيه ارتعشَ، ثمَّ هوى على الحذاء. فكَّرت في أنَّه هو الآخر سيموت، لأنَّه اعتادَ الاقتياتَ على رؤوس أعواد الثقاب المحروقة، فضلاً عن حقيقة أنَّ اقتياته دائماً على الخبزِ الرَّطب قد يسبِّب لهذه الطُّيور الصَّغيرة اضطراباتٍ مميتة. إنَّه ممتلئٌ بالقدر الكافي من العافية حتَّى اللحظة، لكنَّه خاملٌ؛ لا يتقافزُ جارياً، يلزم جانبي على الدَّوام ويأتي ببعض الرَّكلاتِ اللاإراديَّة.

تلك هي أحدوثة عصفوريَّ الفتيَّان.

أعانقكِ بحنانٍ.

أنطونيو

---

(1) يقصد فترة التنزُّه المخصَّصة للمعتقلين في ساحة السِّجن، (م).

الرّسالة IV

الفأرُ والجبل

عزيزتي جوليا،

هلّا سألتِ دِلْيو، نيابةً عنّي، أيُّ قَصَصِ بوشكين هي الأحبُّ إليه. أنا في الحقيقة لا أعرف إلا اثنتين منها: "الدِّيك الذَّهبيُّ" و"صيَّادُ السَّمك".

أودُّ الآن أن أقصَّ على دِليو قصَّةً مِن بلدتي أحسبها ممتعةً. سوف ألخِّصها لكِ، ولْتتوسَّعي أنتِ بها له ولجوليانو.

كان الطِّفلُ غارقاً في النَّوم؛ وثمَّة إبريقٌ من الحليب مُعَدٌّ له عندما يستيقظ. شربَ فأرٌ الحليبَ. الطِّفلُ الذي لم يحظَ بالحليب راح يزعق، فهرعت الأمُّ التي لم يكن في يدها حيلةٌ نحو العَنزة لجلبِ الحليب. رفضت العنزة منحها الحليبَ ما لم تعطها عشباً لتأكل. مضى الفأر إلى الحقل لجلب العشب، فطلبَ الحقلُ المجدِبُ ماءً. مضى الفأرُ إلى فسقيَّةِ الماء. كانت الفسقيَّةُ مهدَّمةً من زمنِ الحرب والماء يتبدَّدُ سُدىً منها: طلبتْ بنَّاءً ماهراً؛ وهذا طلبَ حجارةً. مضى الفأرُ إلى الجبل وجرى حوارٌ رفيعٌ بينه وبين الجبل الذي اقتُلِعتْ أشجارُه من قبل المستثمرين وظهرت في كلِّ موضعٍ منه عظامٌ لا يغطِّيها ترابٌ. سردَ الفأرُ القصَّة بحذافيرها وعاهده بأنَّ الطِّفل عندما يكبر سيعيد تشجيرَه من جديدٍ بالصَّنوبر والبلُّوط والكستناء وغير ذلك. وهكذا أعطاه الجبلُ حجارةً، إلخ. ونال الطِّفل وفرةً من الحليب حدَّ أنَّه كان

يغتسلُ بالحليب أيضاً. كبُرَ، غـرسَ الأشـجارَ، فـاختلفَ كـلُّ شـيءٍ؛ توارت عظامُ الجبلِ تحت الدُّبالِ الجديد، الهطولاتُ المُناخيَّةُ انتظمتْ من جديدٍ لأنَّ الأشجارَ حفظتِ المياه المتبخِّرة وأمسكتِ الـسُّيولَ عـن اجتيـاحِ الـسَّهلِ. زبـدةُ القـول أنَّ فـأراً تـصوَّرَ خطَّـة عمـلٍ صـائبةً ومضبوطة، منظَّمةً وملائمةً لبلدٍ دمَّره اقتلاعُ الأشجار.

عزيزتي جوليا، عليكِ أن تقصِّي هذه القصَّة حتمـاً علـى الطِّفلـين، وأن تُبْلغيني بانطباعيهما.

أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

الرِّسالة V

المخبون[1]

عزيزتي تانيا،

أودُّ أن أكتب إليكِ عن مسألةٍ من شأنها أن تغضبك وتضحككِ في آنٍ معاً.

فيما كنت أقلِّبُ صفحاتِ معجم لاروس الصَّغير عادت إلى ذاكرتي مسألةٌ على قدرٍ من الغرابة. كنتُ في طفولتي مطارِداً لا يعرف الكلل للوزْغاتِ والثَّعابين الصَّغيرة التي كنت أقرِّبها طعاماً لصقرٍ فائق الجمال سبقَ أن روَّضته. خلال تلك المطاردات في حقولِ بلدتي (غيلارزا)، حدثَ لمرَّتين أو ثلاث مرَّات أن عثرت على حيوانٍ مشابهٍ للأفعى الشَّائعة (أفعى صغيرة غير سامَّة)، بخلاف أنَّه يمتلك أربعة أطرافٍ صغيرة، اثنان منهما قريبان من الرَّأس، واثنان بعيدان جدَّاً عن ذينك الأماميَّين وقريبان من الذَّيل (إذا صحَّ أن نسميِّه كذلك)؛ كان طول الحيوان ما بين ستِّين وسبعين سنتيمتراً، وكان ثخيناً جدَّاً بالمقارنة مع طوله، ثخانةً توازي ثخانة أفعى شائعة بطولِ مترٍ وعشرين سنتيمتراً أو حتَّى مترٍ ونصف المتر. لم تكن الأرجل الصَّغيرة بذاتِ نفعٍ عظيمٍ له، حيث كان يفرٌّ زاحفاً ببطءٍ كبيرٍ.

في بلدتي كان يُطلَقُ على هذا الزَّاحف اسم "المخبون"، ويعني المقصوص، وتُعزى التَّسمية دون شكٍّ إلى حقيقة أنَّ له هيئةَ أفعى

---

(1) خبنَ الثَّوبَ أي قصَّرَه بثني جزءٍ منه وخياطته، (م).

شائعة مقصوصة (انتبهي، فثمَّة أيضاً عظاءةُ الدُّويدةِ العمياء، تلك التي تجمعُ ما بين قِصَرِ الجسدِ والنَّحافةِ المتناسبة معه).

في سانتو لوسورجو، حيث أنهيتُ مراحل الدِّراسة الإعداديَّة الأخيرة، سألتُ أستاذ التَّاريخ الطَّبيعي (الذي كان في الحقيقة مهندساً محليَّاً عجوزاً)، عن اسم "المخبون" في اللغة الإيطاليَّة. ضحكَ الأستاذ وأخبرني بأنَّه مخلوقٌ خياليٌّ، كمثل الآسبيس[1] أو الباسيليسك[2]، وبأنَّه لم يعرف على الإطلاق حيواناً كمثل هذا الذي وصفته له.

---

(1) أطلقتْ تسمية آسبيس فيما بعد على أفعى الصِّل. أمَّا قديماً فكان يُعتَقَد أنَّ الآسبيس، والتي من أسمائها أيضاً هيموروس وهيناليس، تتجنَّب إغواء الموسيقى بضغط إحدى أذنيها على الأرض وسَطمِ الأذن الأخرى بذيلِها، وهي بذلك إنَّما ترمز إلى الشَّخص الماديِّ والمترف الذي يبقي إحدى أذنيه على الرَّغبات الأرضيَّة، بينما الأذن الأخرى موصدةٌ بالخطايا. ويُعتبر القدِّيس أوغسطين (354- 430 م) أوَّل من عبَّر عن هذه الفكرة من منظورٍ ديني، حيث قال: "حتَّى لو كان حقيقةً ما يُقال عمَّا تفعله الآسبيس عندما تُتلى عليها التَّعاويذ، بأنَّها تلجأ إلى ضغطِ إحدى أذنيها على الأرض وتستعمل ذيلَها لتسدَّ الأذن الأخرى لكي لا تُسحَبَ من جحرِها، فالمعوِّذ قادرٌ رغم ذلك على سحبِها خارجاً". ونشير هنا إلى أنَّ بعض الروايات تصوِّر الآسبيس على أنَّها تحرس شجرةً تُدِرُّ بلسماً شافياً، ولكي يحصل الرِّجال على هذا البلسم ينبغي عليهم أوَّلاً أن يعزفوا أو يغنُّوا للآسبيس لتنام؛ فيما تقول رواياتٌ أخرى أنَّ في رأس الآسبيس حجراً نفيساً ينبغي على السَّحَرة إذا ما أرادوا الحصول عليه أن يتلفَّظوا بكلماتٍ محدَّدة في أذن الآسبيس، (م).

(2) عظاءة خرافيَّة ترمز إلى القسوة التي تنبعثُ من نظراتِها، حدَّ أنَّها يمكن أن تحرقَ نفسَها إذا ما نظرت إلى صورتِها في مرآة، وعليه فإنَّه لا سلاح ينفعُ ضدَّها سوى المرآة، (م).

أوضح فتيةُ سانتو لوسورجو أنَّ "المخبون" في بلدتهم هو نفسُه الباسيليسك، وأنَّ المخلوق الذي وصفته أنا يُسمَّى كولورو (كولوبر باللاتينيَّة)، بينما تسمَّى الأفعى الشَّائعة كولورا بالتَّأنيث، غير أنَّ الأستاذ قال إنَّ ذلك كلَّه مِن خُرافاتِ القرويِّين وإنَّ أفاعيَ بأرجلٍ هي شيءٌ لا وجود له. أنت تعلمين مقدار غضب شابٍّ إذا ما أحسَّ بالغبن فيما هو واثقٌ من أنَّه محقٌّ أو، وكذا الأمر، إذا ما سُخِر منه بأنَّه مؤمنٌ بالخرافات في مسألةٍ تتعلَّق بالحقائق. أفكِّر بأنَّ ردَّ فعلي ضدَّ السُّلطة الخاضعة للجهل والواثقة من نفسها مرتبطٌ على ما أذكر بتلك الحادثة.

في بلدتي لم أسمع مِن ثَمَّ أحداً يتكلَّم على الطَّبيعةِ المؤذيةِ للباسيليسك المخبون، بينما في بلداتٍ أخرى كان مُهابَاً ومحاطاً بالأساطير.

الآن، وتحديداً في اللاروس، رأيتُ بين اللوحاتِ المصوَّرة للزَّواحف سحليةً تسمَّى الإسْقَنْقُور وهي بالضَّبط أفعى بأربع أرجل (يقول اللاروس إنَّها تعيش في إسبانيا وجنوبي فرنسا، وتنتمي إلى فصيلة الإسقنقوريَّات scincidae التي يمثِّلها نموذجيَّاً الإسقنقورُ العاديّ[1] [أهو نفسه السُّحلية الخضراء يا تُرى؟]).

صورة الإسقنقور لا تتطابق مع شكل المخبون الذي في بلدتي: الإسقنقورُ عبارةٌ عن أفعى نظاميَّة، نحيلة، طويلة، منسجمة الأبعادِ، والأطرافُ متَّصلةٌ بالجسم بشكلٍ متناسق. أمَّا المخبون في المقابل فهو مخلوقٌ منفِّر؛ رأسه بالغة الثَّخانة، ليست صغيرة كتلك التي للإسقنقور؛ الذَّيل مخروطيٌّ بصورةٍ جدٌّ مستدقَّة؛ الطَّرفان الأماميَّان قريبان جدَّاً من الرَّأس، ومن ثمَّ فإنَّهما بعيدان جدَّاً عن ذينك

(1) يسمَّى أيضاً سمكة الرِّمال، (م).

الخلفيَّين؛ الأطراف جميعها بلونٍ مائلٍ إلى البياض، عليلةٌ، كتلك التي للسَّمندل الأعمى[1] وتعطي انطباعاً بالشَّوَه والشُّذوذ.

أمَّا بتكوينه الجسمانيِّ الكامل، فإنَّ هذا المخلوق الذي يقطن البيئات الرَّطبة (كنت دائماً أراه بعد دحرجة حجارةٍ كبيرة) يعطي انطباعاً خالياً من اللطف والجمال، بعكس السُّحليات والأفاعي التي، بغضِّ النَّظرِ عن الاشمئزاز البشريِّ العامِّ من الزَّواحف، تبقى في العمقِ أنيقةً ولطيفة.

أودُّ الآن أن أعلم من خلال خبرتكِ في حقل التَّاريخ الطَّبيعيِّ إذا كان ثمَّة اسمٌ إيطاليٌّ لهذا الحيوان وإذا ما كان معروفاً عن هذا النَّوع، الذي يُفترَض أنَّه ينتمي إلى نفسِ فصيلةِ الإسقنقوريَّات الفرنسيَّة، أنَّه يعيش في ساردينيا. من المحتملَ أنَّ أسطورة الباسيليسك قد حالت دون البحث عن هذا الحيوان في ساردينيا؛ فأستاذ سانتو لوسورجو لم يكن شخصاً غبيَّاً، بل على العكس؛ ولقد كان فوق ذلك باحثاً مُجِدَّاً؛ يهوى جمع المعادن الأحفوريَّة وسوى ذلك، مع أنَّه لم يؤمن بوجود المخبون ككائنٍ عاديٍّ من غير نفثاتٍ سامَّة وعيونٍ حارقة. لا ريب أنَّ هذا الحيوان نادرُ الوجود: فأنا لم أره أكثر من ستِّ مرَّاتٍ، ودائماً تحت الصُّخور، بينما رأيت الأفاعي الشَّائعة آلاف المرَّات دون الحاجة إلى تحريك الحجارة.

أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

---

(1) تحديداً "السمندل الأعمى ذو الخياشيم الخارجيَّة" Proteus anguinus وهو نوع من البرمائيَّات النَّادرة يعيش في الكهوف ويستوطن المياه الجوفيَّة وسط وجنوب شرق أوروبا، ويسمَّى أحياناً من قبل السكان المحليين "سمكة الإنسان" بسبب لون جلدها المماثل للون جلد الإنسان مِن العِرق الأبيض، (م).

الرّسالة VI
مطاردةُ الضَّفادع

عزيزتي جوليا،

من أكثر الأشياء التي أثارت اهتمامي في رسالتِك خبرُ انشغال دِليو وجوليانو بتصيُّدِ الضَّفادع.

أودُّ أن أعلم إذا ما كان الأمرُ متعلِّقاً بالضَّفادع الصَّالحة للأكل أم لا، ما قد يضفي على جهدهما كصيَّادَين ميزةً عمليَّةً ونفعيَّةً لا يُستخَفُّ بها.

لا أعلم إذا كنتِ ستلتزمين بذلك، ولكن عليكِ أن تلقِّني الولدَين كيف يميِّزان الضَّفادع المأكولة عن الضَّفادع الأخرى: تلك المأكولة تمتلك بطناً أبيض بالكامل، أمَّا الأخرى فالبطن عندها ذو لونٍ ضاربٍ إلى الحُمرة.

يمكن إمساكها بأن توضَع في الشِّصِّ بدلاً من الصِّنَّارة قصاصةٌ صغيرةٌ من خِرقةٍ حمراء فتنجذب نحوَها لتعضَّها، ينبغي الإتيان بدلوٍ صغيرٍ لوضعها فيه بعد قطع رؤوسها وسيقانها بالمقصَّات.

بعد الانتهاء من سلخها، يمكن تحضيرها بطريقتين: لصنع حساءٍ لذيذٍ، وفي هذه الحالة ينبغي بعد غليها لوقتٍ طويلٍ مع التَّوابل المعهودة وضعها في المِنخل بحيث يتساقط كلُّ شيءٍ منها في الحساء

باستثناء العِظام؛ أو يمكن قليها وتناولها مذهَّبةً ومُقَمَّرة. وأيَّاً يكن، فإنَّها في الحالتين غذاءٌ جدٌّ شهيٌّ، وعلى وجه الخصوص مغذٍّ جداً وسهلُ الهضم.

أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

الرّسالة VII

شجرةُ القنفذ

عزيزي دِليو،

لقد أعجبتني زاويتك الصَّغيرة المخصَّصة لتربية الصُّغْنُجاتِ[1] والأسماكِ الصَّغيرة. إذا فرَّت عصافيرُ الصُّغْنُجِ من أقفاصِها ينبغي ألَّا نمسكها من أجنحتها أو سيقانها، فهذه الأعضاء رهيفةٌ جدًّا ويمكن أن تنكسرَ أو تنخلع؛ يتحتَّمُ إمساكُ جميع أجزاء الجسم ملءَ قبضةٍ واحدة، دون الضَّغط عليها. حين كنت يافعاً ربَّيتُ الكثير من الطُّيور وسائر أجناس الحيوان الأخرى: صقوراً، بُوماتٍ، وقاوقَ، عقاعقَ، صُفْرُداتٍ، حساسين، عصافيرَ كناريٍّ، عصافيرَ صُغْنُجٍ، قُبُّراتٍ، وهلُمَّ جَرًّا؛ كما ربَّيتُ أفعى، ابنَ عرسٍ، قنافذَ، وسلاحف.

إليك إذن كيف رأيت القنافذ تجمعُ التُّفَّاح. في إحدى أمسيات الخريف، بعدما هبطَ الظَّلام، فيما شعَّ القمرُ منيراً في السَّماء، مضيت مع فتىً آخر، صديقٍ لي، إلى حقلٍ مليءٍ بأشجار الفاكهة، وتحديداً أشجارِ تفَّاح. اختبأنا في إحدى الأجمات، عكس اتِّجاه الرِّياح. وفجأةً، إذا بالقنافذ تخرجُ من جحورِها، كانت خمسة: اثنان

---

(1) الصُّغنج (ويسمَّى أيضاً عصفور ظالم) هو نوعٌ من العصافير الصَّغيرة المغرِّدة ينتمي إلى نفس الفصيلة التي تنتمي إليها عصافير الدُّوري والحسُّون والنَّعَّار وغيرها، (م).

كبيران وثلاثة صغار. في صفٍّ متراتبٍ، كأنَّه صفٌّ من الهنود، اندفعت نحو أشجار التُّفَّاح، طافت بين الأعشاب، ثمَّ شرعت بالعمل: بمساعدة مخاطمها وسيقانها الضَّئيلة راحت تدحرجُ التُّفَّاحات التي أسقطتها الرِّيح عن الأشجار، وتكوِّمها معاً في فسحةٍ صغيرة، الواحدة قربَ الأخرى وبمنتهى الحرص والعناية. ولكن لمَّا وجدت أنَّ التُّفَّاح الملقى إلى الأرض غير كافٍ، راح القنفذ الأكبر حجماً، بمخطمٍ موجَّهٍ نحو الهواء، يحدِّق حولَه، ثمَّ لم يلبث أن اختار شجرةً فائقة الاعوجاج واندفعَ يتسلَّقها، متبوعاً بقرينته. حطَّا على غصنٍ مثقلٍ بالثِّمار، وشرعا بالتَّأرجح على نحوٍ إيقاعيٍّ: حَركتُهما انتقلتْ إلى الغصن، وهذا بدورِه أخذ يتهزهز بقوَّةٍ راحت تشتدُّ اطِّراداً، حتَّى بلغت الرَّجَّاتُ من العنف حداً اسَّاقطت معه تفَّاحاتٌ أخرى إلى الأرض. ما إن كوِّمت هذه أيضاً مع الأخريات، حتَّى اندفعت جميع القنافذ، كبيرةً وصغيرة، تتدحرجُ بأشواكها الحادَّة، واستلقت على الثِّمار لكي تنغرز في أشواكها: ثمَّة قنافذ لم تغرز إلا القليل من ثمار التُّفَّاح (إنَّها القنافذ الصَّغيرة)، أمَّا الأب والأمُّ فنجح كلٌّ منهما بغرزِ سبع أو ثماني تفَّاحاتٍ.

وبينا هي في طريق عودتها إلى الجحر، خرجنا نحن من مكمننا، وضعنا القنافذ في كيسٍ وحملناها إلى المنزل.

حصلتُ أنا على الأب وصغيرين واحتفظتُ بهم لشهورٍ طويلةٍ طلقاءَ في حُوشِ الدَّار؛ كانوا يتصيَّدون كلَّ أصنافِ الحُوَيناتِ، والصَّراصير، والخنافس، وغير ذلك، ويقتاتون على الفاكهة وأوراق الخضروات. لَشَدَّما أولعوا بالأوراق الطَّريَّة وهكذا استطعت تدجينهم لبعض الوقت؛ كفُّوا عن التَّكوُّر على أنفسهم في حضور البشر. غير أنَّ خوفهم من الكلاب كان منقطعَ النَّظير. كنت أتسلَّى بحملِ الأفاعي الشَّائعة وهي

على قيد الحياة إلى الحُوش لكي أرى كيف تتصيَّدها القنافذ. حالما يفطن القنفذ لوجودِ الأفعى، تَرَاه يسارع إلى القفز بخفَّةٍ على أربعِ أرجل ويتحفَّز بشجاعةٍ فائقة. كانت الأفعى ترفع رأسها، وتنفخُ مخرجةً لسانَها؛ فيطلقُ القنفذُ صفيراً خفيفاً، ويقبض على الأفعى بطرفيه الأماميَّين، ثمَّ يعضُّ رقبتها ويشرع بأكلها قطعةً قطعة. ذات يومٍ اختفت هذه القنافذ: يقيناً أنَّ أحدهم أخذها ليجعل منها طعاماً.

في المرَّات القادمة سأكتب إليك عن رقصةِ الأرانب، والطَّائرِ النَّسَّاجِ والدُّبِّ، وأريد أن أقصَّ عليك أشياء أخرى سمعتها ورأيتها عن حيواناتٍ أخرى عندما كنتُ فتىً يافعاً: حكاية المهر الصَّغير، وحكاية الثَّعلب والحصان الذي يمتلك ذيلاً فقط في أيَّام العُطَل والأعياد إلخ. أظنُّ أنَّك تعرف حكايةَ **كيم**[1]، وحكايا الأدغال وتحديداً تلك التي تتحدَّث عن فرس البحر الأبيض وعن **ريكّي-تيكّي-تافي**[2]؟

أقبِّلك.

أنطونيو

---

(1) رواية للشَّاعر والروائي الإنجليزي رديارد كبلنغ نشرت سنة 1901م، تتحدَّث عن مغامرات يتيمٍ إيرلنديٍّ يرافق راهباً بوذيَّاً من التيبت في رحلةٍ عبر جبال الهيملايا بحثاً عن "نهر الشِّفاء" المقدَّس، (م).

(2) قصَّة قصيرة في "كتاب الأدغال" (1894) لرديارد كبلنغ تتحدَّث عن مغامرات نمسٍ شجاعٍ يحمل اسم ريكي-تيكي-تافي (سُمِّي كذلك بسبب ثرثرته وطريقة لفظه)، (م).

الرّسالة VIII

الثّعلب والمُهْر

الأثير إلى قلبي دِليو،

علمتُ أنَّك زرتَ البحرَ ورأيتَ أشياء فائقة الجمال. أتوق إلى أن تكتب إليَّ واصفاً لي مكامن الجمال تلك. وهل حظيتَ، مِن ثَمَّ، بكائنٍ حيٍّ جديدٍ؟ عندَ البحر ثمّة حشدٌ كبيرٌ من أصنافِ الكائنات: سرطانات بحرٍ، قناديل بحرٍ، نجوم بحرٍ، وغير ذلك. منذ مدَّةٍ بعيدةٍ وعدتُكَ أن أكتب لك بعض القَصَصِ عن الحيوانات التي عرفتُها منذ سنيِّ طفولتي، بيدَ أنَّ الظروف أعجزتني عن ذلك. سأحاول الآنَ أن أقصَّ عليك إحداها: ولتكن على سبيل المثال حكاية الثّعلب والمهر.

يبدو أنَّ الثَّعلب يعرف بالضَّبط مواقيت ميلادِ المِهار، فيكمن لها. والفرسُ تدركُ أنَّ الثَّعلبَ ماكثٌ في كمينه؛ ولذلك، حالما يولد المهرُ تشرعُ الأمُّ بالدَّوران خبباً حول الصَّغير العاجز عن الحركة والفرار إذا ما انقضَّ عليه حيوانٌ ضارٍ. مع ذلك، تُرى أحياناً في طرقات ساردينيا جيادٌ بلا ذيلٍ وبلا آذانٍ. لماذا؟ لأنَّها فورَ ولادتها استطاع الثَّعلب، بطريقةٍ أو بأخرى، الدُّنوَّ منها والتهامَ ذيلها أو آذانها التي لا تزال غضيضةً جداً. عندما كنت طفلاً كان أحد هذه الجياد يعمل في خدمةِ عجوزٍ يبيعُ الزَّيت والشُّموع والنَّفط، متنقِّلاً من قريةٍ إلى قرية لبيعِ بضاعته (آنذاك لم يكن ثمَّة تعاونيَّةٌ أو جهةٌ أخرى لتوزيع السِّلَع)؛ لكن كلَّ نهارٍ أحدٍ، ولكيلا يهزأ الأطفال المشاغبون به، كان البائع يضع لحصانه ذيلاً زائفاً، وأذنين زائفتين.

سأقصُّ عليك الآن كيف التقيت بالثَّعلب أوَّل مرَّة. مضيتُ ذات يومٍ رفقةَ أخوتي الصِّغار إلى بستانٍ إحدى الخالات حيث توجد شجرتا بلُّوطٍ هائلتان وبضع أشجار فاكهة؛ كان علينا جمع ثمار البلُّوط كيما نطعمَ الخِنَّوْصَ.

لم يكن البستان بعيداً عن البلدة، لكن مع ذلك كان كلُّ شيءٍ مهجوراً وتوجَّب علينا النُّزول في وادٍ.

حالما دخلنا البستان فوجئنا بثعلبٍ مكتنزٍ وقد أقعى باطمئنانٍ تحت إحدى الأشجار، رافعاً ذيله الفاتن مثلَ رايةٍ. لم يخف أبداً؛ كشر لنا عن أنيابه، لكنَّه بدا ضاحكاً، لا مهدِّداً. استبدَّ بنا الغضبُ نحن الأطفال لأنَّ الثَّعلب لم يرهب جانبنا؛ بل لم يرهب شيئاً بتاتاً. رميناه بالحجارة، ولكنَّه بالكاد تنحَّى، ثمَّ راح يحدِّق فينا متهكِّماً ومتكتِّماً على دخيلةِ نفسه. وضعنا العصيَّ على أكتافنا وصحنا معاً صيحة رجلٍ واحدٍ: بوووم! كما لو كان طلقاً ناريَّاً، بيد أنَّ الثَّعلب عرض لنا أنيابه ثانيةً دون أن يعبأ كثيراً. على حين غرَّةٍ سُمعَ طلقٌ ناريٌّ حقيقيٌّ، أطلقه أحدٌ ما في الجوار. آنذاك فقط وثب الثَّعلبُ وفرَّ بسرعة البرق. يُخَيَّلُ إليَّ أنِّي لا أزال أراه يركض بلونه الأصفر الليمونيِّ، كمثلِ ضوءِ البرقِ على جدار، وذيلُه مرفوعٌ أبداً، ليتلاشى في دغلٍ كثيف.

عزيزي دِليو، أخبرني الآن عن رحلاتك وعن الأشياء الجديدة التي رأيتَها.

أقبِّلُك.

أنطونيو

الرّسالة IX

سيجارةٌ في المِدخنة

عزيزي دِليو،

علمتُ أنَّك ترتادُ المدرسة، وأنَّك بطول مترٍ وثمانية سنتيمترات، وتزنُ ثمانية عشر كيلو غرامٍ. وهكذا أفكِّرُ بأنَّك صرتَ كبيراً جدّاً، وبأنَّه خلال فترةٍ قصيرةٍ سيكون في مقدورك أن تكتب إليَّ الرَّسائلَ بمفردك. بانتظارِ ذلك يمكنك اليوم أن توكِّل والدتك بالكتابة، مُملياً عليها، مثلما كنت تملي عليَّ، في روما، الرَّسائل إلى جدَّتك. على هذا المنوال ستخبرني عمَّا إذا كان بقيَّة الأطفال في المدرسة يروقونك، وعن الأشياء التي تتعلَّمها والألعاب التي تستهويك. أعلم أنَّك تبني طائراتٍ وقطارات، وتشارك بفاعليَّةٍ في حركة التَّصنيع ببلدِك، ولكن هل صحيحٌ أنَّ هذه الطَّائرات تطير حقّاً وهذه القطارات تسير؟ لو كنتُ موجوداً، لقمتُ على الأقل بوضع سيجارةٍ في المدخنة بحيث يُرى بعض الدُّخان.

عليكَ، كذلك، أن تكتب إليَّ شيئاً ما عن جوليانو. ما رأيك فيه؟ هل يقدِّم لك يد العون في أعمالك؟ أهو مثلك بانٍ، أم أنَّه لا يزال صغيراً جدّاً بعد ليستحقَّ هذه الصِّفة؟ محصِّلة القول، أريد أن أعرف كومةً من الأشياء، وبما أنَّك كبيرٌ إلى هذا الحد، وكما أخبروني، ثرثارٌ قليلاً، فإنَّني على يقينٍ من أنَّك ستكتب إليَّ، بيدِ والدتِك في

الوقت الحاضر، رسالةً طويلةً، طويلةً مع كلِّ هـذه الأخبـار، وأخبـار أخرى بعد. ولسوف أكتب إليك أخباراً عن وردةٍ زرعتُها وعن وزغةٍ[1] أريد أن أربِّيها.

قبِّلْ جوليانو بالنِّيابة عنِّي، وكذلك والدتك وجميع من في المنزل، ولتقبِّلك والدتك بدورِها نيابةً عنِّي.

أنطونيو

---

(1) فكَّرت في أنَّك ربَّما لا تعرف الوزغات: إنَّها نـوعٌ مـن التَّماسـيح تبقـى علـى الدَّوام ضئيلة الحجم.

طبعاً علميّاً المعلومة خاطئة، ربَّما كان غرامشي يمازح ابنه، أو أنَّه أراد تبسيط المعلومة له، (م).

الرِّسالة X

أيروقكما بينوكيو؟

الأثيران إلى قلبي دِليو وجوليانو،

منذ أمدٍ بعيدٍ لم تكتبا إليَّ، لماذا؟

لم تعد تصلني أخبارٌ عن كائناتِ دِليو الحيَّة، عن صُغْنُجِه، وأسماكه الصَّغيرة.

وبعدُ: هل تسلَّمَ دِليو كتابَ بينوكيو؟ هل أعجبته الرُّسوم المصوَّرة؟ هل وجدها مشابهةً للصُّورة التي تخيَّلها عن الدُّمية؟ وجوليانو، هل أحبَّ حكاية بينوكيو؟

ما هي محاور اهتمامكما هذه الأيَّام سواءً في المدرسة أم في المنزل؟

اكتبا إليَّ أشياء كثيرة، كلاكما.

لكما منِّي عناقاتٍ وملاطفاتٍ جمَّة.

أنطونيو

الرِّسالة XI

لقاءٌ مع البحر

عزيزي جوليانو،

لقد رأيتَ البحرَ، لأوَّل مرَّةٍ.

اكتب إليَّ شيئاً عن انطباعاتك.

هل تجرَّعت الكثير من الماء المالح وأنتَ تسبح؟ هل تعلَّمت السِّباحة؟ هل تصيَّدتَ أسماكاً صغيرةً وسلطعوناتٍ؟

لقد رأيتُ فتيةً يتصيَّدون سُمَيكاتٍ في البحر بطوبِ قرميدٍ مثقَّب (ذي فجوات)؛ ولقد ملؤوا منها دلواً.

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسـالة XII

أُسُـوْدٌ وحكـايا

الأثير إلى قلبي دِليو،

لقد تسلَّمتُ رسالتك المؤرَّخة بالثَّامن والعشرين من آذار والتي تضمُّ أخباراً عن السُّميكات، والوردة، وزهرةِ كعب الثَّلج، والدِّببةِ والأسُود. لكن أيَّ نوعٍ من الأسُودِ رأيت؟ أسُوداً إفريقيَّةً أم أسُوداً من تركستان؟ أتمتلك لبدةً أم أنَّ شعر العنقِ عندها بسيطٌ غيرُ مُترَفٍ؟ وهل كانت الدِّببة شبيهةً بتلك التي رأيتَها في روما؟

لم تكتب إليَّ عمَّا إذا تسلَّمتَ كتابَ بينوكيو وإذا ما راقت مغامراتُ الدُّميةِ المصوَّرة لجوليانو أم لا. هل قرأت مِن ثَمَّ قصَّة فرس البحر الأبيض، وقصَّة النِّمْسِ ريكي-تيكي-تافي، والفتى ماوكلي الذي ربَّته الذِّئاب... سنة 1922 في مكتبة **الدَّولة** كانوا يُعِدُّون طبعةً تعتمدُ الرُّسومَ الأصليَّة، وقد أتيحت لي فرصةُ المشاهدة فيما كان عمَّال الطِّباعة يمرِّرونها على الحَجَر[1]. اسأل والدتك وخالتك تانيا عمَّا إذا كان لا يزال ممكناً الحصول على هذه الطَّبعة؛ وإلَّا فإنَّني سأرسل إليك الكتاب بالإيطاليَّة أو بالفرنسيَّة.

أقبِّلك وجوليانو.

أنطونيو

---

(1) حجر الطِّباعة، (م).

الرِّسالة XIII

لعبةُ الدَّاما

عزيزي دِليو،

تسلَّمتُ رسالتك وبلغتني أخبارُ نشاطاتك المدرسيَّة. هل راقتكَ قصصُ ماوكلي؟ حياتي تمضي بصورةٍ رتيبةٍ بعض الشَّيء، لكن على نحوٍ باعثٍ على الرِّضى بما فيه الكفاية فيما يتعلَّق بصحَّتي.

يؤسفني كثيراً ألَّا أكون قادراً على الوجود إلى جانب فَتَيَيَّ الحبيبين وكذلك ألَّا أكون قادراً على مساعدتهما في واجباتهما المدرسيَّة وفي شؤون الحياة. لقد قرأت في الصُّحف عن نتائج مباراةِ الشَّطرنج، ولكنَّني جاهلٌ بهذه اللعبة: لقد تعلَّمتُ قليلاً لعبة الدَّاما ليس إلَّا.

أقبِّلك.

أنطونيو

الرِّسالة XIV

جروٌ رضيع

عزيزي جوليانو،

لقد تسلَّمتُ الصُّورةَ الفوتوغرافيَّة والبطاقةَ البريديَّة، غير أنَّني وجدتهما لا تنسجمان مع بعضهما.

في الرِّسالة تتشكَّى، وتقريباً تُعْوِلُ كمثلِ طفلٍ في الخامسة، في حين أنَّك فتىً كبيرٌ وقوي، وعليك أن تواجه الأحداث بشجاعةٍ وهدوء.

أنت نفسُك كتبت إليَّ ذات مرَّةً أنَّ المدرسة التي ترتادها تصلحُ لئلَّا يضيع المرءُ سنةً في الدِّراسة؛ أتستخفُّ بهذا؟ ثمَّ ينبغي أن نعلم إذا ما كنت غير مستحقٌ لذلك التَّوبيخ الذي يوجِّهونه إليك. في جميع الأحوال، إذا ما وجبَ عملُ شيءٍ، وجبَ عملُه من غير تشكٌّ، من غير عويلٍ كالجراء الرَّضيعة، وبطريقةٍ نستخلصُ عِبرها منه كلَّ المكاسب.

من جهتي لا يروقني أن أرى فتىً مثلك يتشكَّى، في حين أنَّك في الصُّورة الفوتوغرافيَّة تبدو ثابتَ العزيمة، عاقدَ النِّيَّة على بلوغِ غايتك؛ على هذه الشَّاكلة أحبُّ كثيراً أن أراك، ولك منِّي كلُّ التَّمنِّيات.

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XV

كُمَّةُ المِصْباح

عزيزي جوليانو،

تسلَّمتُ رسالتك والبطاقة البريديَّة المصوَّرة برسوم الهُرَيْرات.

أعجبُ من أنَّك ودِليو لم تفكِّرا إلى اليوم بصُنعِ كُمَّةٍ للمصباح الكُهربيِّ الصَّغير. بخمسين سنتيمتراً من سلكٍ نحاسيٍّ أو حديديٍّ رفيعٍ مع بضعِ قطعٍ ملوَّنةٍ من قماشٍ منسوجٍ أو حتَّى من ورقٍ مشمَّعٍ، يمكن صنعُ كُمَّةٍ مريحةٍ جداً، حيث لا يرهقُ الضَّوءُ الصَّادرُ عنها عيني النَّاظر. يمكن للكُمَّة أن تُنجزَ لكي يكون الضُّوء بأكمله مخفَّفاً أو جزئيّاً ومتحرِّكاً على نحوٍ يسمحُ بتوجيه الظِّلِّ إلى الجهة التي يحسبها المرءُ أكثر ملاءمةً.

لقد وصلتني بعض الصُّور الفوتوغرافيَّة لك، وأودُّ أن أعرف أيَّ الرِّياضاتِ تتقن أداءها على المسندِ السُّوَيدي (هكذا نسمِّيه على الأقل بالإيطاليَّة) الذي تسلَّقته مع رفاقك.

قبلاتٌ من والدك.

أنطونيو

الرِّسالة XVI

الدِّراسةُ أمرٌ شاقٌّ

الأثير إلى قلبي جوليانو،

أقدِّم لك أعمق التَّهاني بمناسبة انتهاء عامك الدِّراسي.

سأكون في غاية الامتنان لو أنَّك توضِّح لي أين تتمثَّل المصاعب التي تواجهها في دراستك. أعتقد أنَّه إذا ما اعترفتَ أنت نفسُك بوجود المصاعب، فإنَّها حتماً ستهون وستتمكَّن من تجاوزها أثناء الدِّراسة: هل هذا مقنعٌ لك؟ لربَّما كنتَ فوضويّاً بعض الشَّيء، تشردُ بسهولةٍ، أو أنَّ ذاكرتك لا تعمل، ولا تعرف أنت كيف تشغِّلها؟ هل تنام جيِّداً؟ وأنت تلعب هل تفكِّر في ما ذاكرته، أم أنَّك تفكِّر في اللعب وأنت تذاكر؟ أنت الآن فتىً بالغٌ وتستطيع الإجابة عن أسئلتي بدقَّة.

في عمرك كنتُ فوضويّاً جدّاً، أمضي ساعاتٍ طِوالٍ متسكِّعاً في الحقول، لكنَّني كنت أدرس جيِّداً كذلك، ذلك أنَّ ذاكرتي كانت قويَّةً جدّاً وحاضرة ولم يكن يفوتني شيءٌ ممَّا هو ضروريٌّ للمدرسة: لكي أنبئك بالحقيقة كاملةً عليَّ أن أضيف أنَّني كنتُ ماكراً وأعرف كيف أتدبَّر أمري مع المصاعب حتَّى عندما لم أكن أدرس إلَّا قليلاً. غير أنَّ النِّظام المدرسيَّ الذي سرتُ في ركابه كان متخلِّفاً للغاية؛ فضلاً عن أنَّ جميع التَّلاميذ تقريباً لم يكونوا يعرفون التَّحدُّث بالإيطاليَّة الفصحى إلَّم يكن على نحوٍ سيئٍ جدّاً وبشقِّ الأنفس، وهذا ما جعلني في

موضع الأفضليَّة لأنَّه كان لِزاماً على المدرِّس أن يأخذ بعين الاعتبار المستوى المتوسِّط للتَّلاميذ، ومعرفةُ التَّحدُّث بالإيطاليَّة كانت ظرفاً يهوِّن الكثير من الأمور (كانت المدرسة تقع في بلدةٍ ريفيَّة وكانت الأغلبيَّة السَّاحقة للتَّلاميذ تنحدر من أصولٍ قرويَّة).

عزيزي، أنا واثقٌ من أنَّك ستكتب إليَّ من غير انقطاعٍ لتضعني دائماً في مجرى حياتك.

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XVII

هديَّةُ الأب

عزيزي جوليانو،

هاأنتذا تتحرَّرُ من حياة الجماعة وتمضي إلى المخيَّم. ستعودُ إلى المدرسة لاحقاً. لماذا تكتب إليَّ في اللحظة الأخيرة بالضَّبط، فيما أنت تنتظر الحافلة؟

أعانقك بحنوٍّ عظيمٍ تهنئةً لكِ بحلول عطلتِك وأرسلُ إليك ساعة يدٍ صغيرة، برجاء أن تجعلك تتفكَّرُ في الوقت ومِن ثمَّ... ألَّا تكتب في اللحظة الأخيرة.

أقبِّلك.

أنطونيو

الرِّسالة XVIII

ادرسْ جيِّداً

عزيزي جوليانو،

ما أحوالُ دماغك الصَّغير؟ لقد أعجبتني رسالتك كثيراً. أسلوبك في الكتابةِ أصبح ثابتاً أكثر من ذي قبل، وهذا يُظهِرُ أنَّك شيئاً فشيئاً تصبحُ شخصاً كبيراً.

سألتني عمَّا يثير اهتمامي أكثر من سواه. عليَّ أن أجيب أنَّ "ما يثير اهتمامي أكثر من سواه" لا وجود له على الإطلاق، بمعنى أنَّ الكثير من الأشياء تثير اهتمامي كثيراً وفي نفس الوقت.

على سبيل المثال، فيما يتعلَّق بك، أجدني مهتمَّاً بأن تدرسَ على نحوٍ جيِّدٍ ومُجْدٍ، وكذلك بأن تكون قويَّاً وصلبَ العودِ ومفعماً من النَّاحية المعنويَّة بالشَّجاعة والتَّصميم؛ وعليه فأنا مهتمٌّ بأن تأخذ قسطاً جيِّداً من الرَّاحة وتأكلَ بشهيَّة، وهلُمَّ جَرَّاً: كلُّ ذلك مرتبطٌ ببعضه ومتناسجٌ بقوَّة؛ فإذا ما فُقِدَ عنصرٌ ما من هذه الكُلِّيَّة أو اختلَّ، تفسَّخَ التَّكامل برمَّته. لذلك ساءَني أنَّك كتبت تقول إنَّك غير قادرٍ على الإجابة عن سؤالي فيما إذا كنتَ تمضي بعزمٍ نحو تحقيق هدفِك، وهذا يعني في هذه الحالة إذا ما كنتَ قويَّاً وتدرسُ جيِّداً وهلمَّ جرَّاً. لماذا لا تستطيع الإجابة، طالما أنَّه يتوقَّف عليك أنتَ الالتزامُ بالنُّظم والقواعد ومقاومة المغريات السَّلبيَّة، وغير ذلك؟

أكتب إليك بجدِّيَّةٍ، لأنَّني أرى اليومِ أنَّك لم تعد صبيّاً صغيراً، ولأنَّك أنت نفسك ذات مرَّةٍ كتبت إليَّ أنَّك تريد أن تُعامَل بجدِّيَّة. يبدو لي أنَّك تمتلك الكثير من القوى الكامنة في دماغك؛ فتعبيرك في حدٍّ ذاته عن عدم قدرتك على الإجابة عن السُّؤال يعني أنَّك تفكِّر وتتبصَّرُ وأنَّك مسؤولٌ عمَّا تفعله وتكتبه. فضلاً عن ذلك، أستشفُّ من الصُّورة الفوتوغرافيَّة التي وصلتني أنَّك مفعمٌ بالطَّاقة. مرحى جوليانو!

أحبُّك كثيراً.

أنطونيو

الرِّسالة XIX

ارسُمْ كما تشاء

عزيزي جوليانو،

ارسُمْ كما تشاءُ أنت، لأجلِ الضَّحك والتَّسلية وليس "على محمَلِ الجدِّ" كما لو كنت تنجزُ واجباً مدرسيّاً لا يستهويك. أرغب، في كلِّ الأحوال، برؤية أحد رسومك التي تنجزها للمدرسة! هذه الرُّسوم، كيف تُراكَ تنجزها؟ بجدِّيَّةٍ أم كتلك التي تنجزها بغرض السُّخرية؟

يبدو لي حقّاً أنَّ أمورك تسير على ما يرام في المدرسة؛ لكن ماذا عن صحَّتك؟ أتركض، وتلعب وتلهو فحسب في تلطيخ الورق بصورٍ لم تُرسَمْ بجدِّيَّة؟

أشكرك على تمنيَّاتك.

أقبِّلك.

أنطونيو

الرِّسالة XX

حيوانٌ نادرٌ

عزيزي جوليانو،

لقد أحببتُ رسومَك كثيراً لأنَّها ببساطةٍ رسومُك. إنَّها، فوق ذلك، مبتكرةٌ وأعتقد أنَّ الطَّبيعة نفسَها لم تبدع أشياءَ مذهلةً مثلها.

الرَّسم الرَّابع يمثِّل صورةَ حيوانٍ خارقٍ للعادة: لا يمكن أن يكون خنفساءَ، لأنَّه فائق الحجم وله فقط أربَع أرجل طويلة في وضع الحركة كتلك التي للحيوانات الكبيرة من ذوات الأربع، ولكنَّه أيضاً ليس حصاناً على الإطلاق لأنَّه لا يمتلك أذنين مرئيَّتين (كذلك في الحيوان الأوَّل الذي رسمتَه لا يمكن رؤية الأذنين، كما أنَّ أحد الرِّجال في الرُّسوم لا يمتلك أذنين).

لربَّما كان أسداً مستأنساً و... شفَّافاً؛ شفَّافاً لأنَّه يمكن رؤية قدمي ممتطيه الاثنتين.

أحبُّ واقعَ أنَّ الأشخاص في رسومِك يستطيعون السَّير على رؤوس الأقدام في الأماكن الفائقة الصُّعوبة؛ على رأس غصنِ شجرةٍ وعلى رؤوس الحيوانات (ربَّما بسبب ذلك فَقَدَ ذلك الحيوان أذنيه...).

عزيزي جوليانو، هل يحزنك أنَّني أتسلَّى برسومك؟ إنَّها حقَّاً تروقني كما هي؛ لكن عليك أن تبعث إليَّ بالرُّسوم التي تنجزها للمدرسة، لا تلك المنجزة من وحي اللحظة.

أنطونيو

الرّسالة XXI

"ذو اللحية"

عزيزي جوليانو،

تسلَّمتُ بحماسٍ كبيرٍ رسومَك الجديدة: أستشفُّ منها أنَّك مسرورٌ، وبالتَّالي أعتقد أنَّك في صحَّةٍ جيِّدة. لكن أخبرني: أتتقن إنجاز رسومٍ أخرى لا تكون بغرض السُّخرية؟ لم تكتب إليّ عمَّا إذا كانوا يعلِّمونكم الرَّسم في المدرسة وعمَّا إذا كان يروقك الرَّسم "الجدِّيّ" أيضاً.

كثيراً ما كنت أرسم في صباي، ولكنَّ الرَّسم كان فوق كلِّ شيءٍ عملاً يقتضي الصَّبرَ؛ لا أحد علَّمني قواعدَه. كنت أنسخُ الصُّورَ والمشاهدَ المنشورة في الصُّحف مكبِّراً إيَّاها. كما كنت أبحث عن الألوان الأساسيَّة بطريقتي التَّبسيطيَّة الخاصَّة، والتي مع ذلك كانت تتطلَّب صبراً كبيراً.

لا أزال أذكر صورةً استغرقني العمل عليها ثلاثة شهورٍ على الأقل: مزارعٌ سقط، وهو بكاملِ ثيابه، في دَنٍّ مليءٍ بالعنب المعدّ للعصر، فيما فلَّاحةٌ شابَّةٌ مكتنزةُ الجسمِ وبدينة تحدِّق فيه ما بين خائفةٍ ولاهية. ينتمي المشهد إلى سلسلةِ مغامراتٍ بطلُها تيسٌ فظيعٌ (ذو لحية) ينطحُ على نحوٍ مباغتٍ وغادرٍ مطوِّحاً بأعدائه وبالفتية الهازئين به أرضاً.

كانت الخواتيم دائماً مُبهِجة، كما في صورتي تلك. لَكَم استمتعت بتكبير الرَّسم الصَّغير: أقيس بواسطة مسطرة الديسمِتر والفرجار، أحاول، وأعيد المحاولة باستخدام الممحاة، وهلمَّ جرّاً. كان أشقّائي وشقيقاتي ينظرون، ويضحكون، لكنَّهم كانوا يؤْثِرون الركض والصُّراخ فيتركونني وشأني أواصلُ محاولاتي.

عزيزي جوليانو، أقبِّلك.

أنطونيو

الرّسالة XXII

تعلَّمْ المكوثَ جالساً

عزيزي دِليو،

مرَّةً بعد أخرى تصبح رسائلك أكثر اختزالاً ورتابةً. إنَّني واثـقٌ مـن أنَّك تمتلـك الوقـت الكـافي لتكتـب إليَّ مُـسهباً وبـصورةٍ أكثـر إثـارةً للاهتمام؛ لا حاجة أبداً للكتابة في آخر لحظةٍ، ودائمـاً علـى عجلـةٍ، قبل خروجك إلى النُّزهة. أليس كذلك؟

ولا أعتقد مطلقاً أنَّه من الممكنِ أن يروقك أن يحكم عليك والـدُك من خلال هذه الرَّسائل بأنَّك مغفَّلٌ صغيرٌ لا يعبأ إلَّـا بـأحوالِ ببَّغائـه، ويتشدَّق فقط بأنَّه يقرأ كتاباً ما أيّاً يكن.

أعتقد أنَّ من بين الأمور الأكثر صعوبةً لمن هـم في مثـلِ سـنِّك أن تبقى جالساً على مكتبك الـصَّغير لتنـضِّدَ أفكـارك (ولتفكِّـرَ طبعـاً) ثمَّ لتدوِّنها في تهذيبٍ تامٍّ؛ ذلك امتحـانٌ "للـوعي الرَّصـين" يبـدو أحيانـاً أشدَّ صعوبةً من سعي صانعٍ عـاديٍّ لاكتـساب صـفةٍ حـرفيٍّ، وينبغـي البدء فيه في عمرك بالضَّبط.

أعانقك بقوَّة.

أنطونيو

الرّسالة XXIII

حفظُ العهود

عزيزي جوليانو،

بلَغتني أخبارُك عِبْرَ رسائل أمِّك وجدَّتك.

لكن ما بالك لا تكتب إليّ كلمةً واحدة؟ إنّي لَأشعر بحبورٍ كبيرٍ عندما أتسلَّمُ رسالةً منك، ويعلم الله كم هي كثيرةٌ الأشياء التي يمكنكَ أن تكتبها عن المدرسة، ورفاقك، ومدرِّسيك، وعن الأشجار التي تراها، وعن ألعابك، وهلمَّ جرّاً.

وبعدُ... لقد وعدتَ أن تكتب إليّ شيئاً ما في كلِّ يومٍ من أيَّام العطلة. ينبغي علينا دائماً أن نحفظ العهود، حتَّى وإن كلَّفنا ذلك إحدى التَّضحيات وأتصوَّرُ أنَّها لن تكون تضحيةً كبيرةً منك أن تكتب بضع عبارات...

عزيزي، أعانقك.

أنطونيو

الرّسالة XXIV

أكبر من نصفِ جنديٍّ

الأثير إلى قلبي جوليانو،

أخيراً كتبت إليَّ بضعة أسطرٍ.

أقدِّم لك أحرَّ التَّهنئات بحلول عطلتك: ها قد أصبحتَ كبيراً، أكبر قليلاً من نصفِ جنديٍّ.

هل أعجبتك ساعةُ اليد؟

هل ستكتب إليَّ عمَّا ستكون عليه أحوالك في المدرسة؟

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXV

هوميروس نائماً

عزيزي جوليانو،

لقد قرأتَ نصفَ رواية ويلز فحسب وتريد أن تحكم منذ الآن على كلِّ أعمال هذا الكاتب الذي كتبَ عشرات وعشرات الروايات، والمجموعات القصصيَّة، والدِّراسات التَّاريخيَّة، وغير ذلك؟ أوجدتها الأجمل أم الأردأ أم أنَّها تمثِّل في رأيك الإمكانيَّات المتوسِّطة للمؤلِّف؟

إنَّ أعظم كتَّاب اليونان القدماء كان هوميروس، وقد كتب المؤلِّف اللاتينيُّ أوراسيوس أنَّه حتَّى هوميروس "ينام" أحياناً.

لا شكَّ أن ويلز، بالمقارنة مع هوميروس، كان ينام على الأقل ثلاثمائة وستِّين يوماً في السَّنة، لكن يمكن القول إنَّه في الأيَّام الخمسة الباقية أو السِّتَّة (عندما تكون السَّنة كبيسةً) كان صاحياً تماماً وكتب أشياء مُبهجة صمدت في وجه النَّقد.

حتَّى أنت كثيراً ما تكون قليل التَّنظيم: رسالتك مكتوبةٌ على عجلٍ، بكثيرٍ من العبارات المنقوصة؛ ومع ذلك أنا واثقٌ من أنَّك تستطيع الكتابة على نحوٍ أفضل، بتنظيمٍ أكبر، وانتباهٍ أدق. لذلك لن أحكم عليك من هذه الرِّسالة، ولن أقول: "انظروا إليه مِن ابنِ حُمَيْرٍ!".

عزيزي جوليانو، لا تغضب واكتب مدعِّماً حججك.

يؤسفني أنَّني غير قادرٍ على النِّقاش معك وجهاً لوجه: لا تظُنَّنَّ أنِّي متحذلقٌ مغرورٌ بعلمي، فأنا أحبُّ كثيراً أن أضحك وأمزح معك ومع دِليو، وأن أحدِّثكما عن كثيرٍ من الأمور التي كانت تثير اهتمامي أنا أيضاً عندما كنت صبيّاً.

أعانقك بحنان.

أنطونيو

الرّسالة XXVI

تعلَّمْ أن تكون منظَّماً

عزيزي جوليانو،

هذه المرَّة لم تصلني أيُّ رسالةٍ منك. يؤسفني ذلك. لَكَم سأكون مسروراً لو أنَّك تكتب إليَّ كثيراً، بل إنَّك وعدتني (أظنُّ ذلك) أن تكتب إليَّ شيئاً ما في كل يومٍ من أيَّام العطلة، وأن ترسِل مِن ثَمَّ المكتوبَ مرفقاً برسالةِ دِليو. أرى أنَّك غير منظَّمٍ بعض الشَّيء وأنَّك تسهو عن عهدٍ كنتَ قطعته مِن قبل. يمكنك أن تكتب إليَّ عن كلِّ شيءٍ ولَسَوفَ أجيبك بمنتهى الجدِّيَّة. لقد غدوتَ الآن فتىً بالغاً وعليك أن تمتلك شعوراً متيناً بالمسؤوليَّة. ما قولك؟ اكتب إليَّ عمَّا تفعله في المدرسة، إذا ما كنتَ تتعلَّمُ بسهولة، وعن الأشياء التي تثير اهتمامك. لكن ما أنت فاعلٌ إذا توجَّب عليك تعلُّم شيءٍ لا يثير اهتمامك؟ ويا تُرى، أيُّ الألعاب تفضِّل؟

عزيزي جوليانو، كلُّ لحظةٍ من حياتك تعنيني.

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXVII
كلُّ شيءٍ مُهِمٌّ

عزيزي جوليانو،

تريدني أن أكتب إليك عن أشياء مهمَّة. حَسَنٌ جداً. لكن ما عساها تكون هذه "الأشياء المهمَّة" التي تودُّ قراءتها في رسائلي؟ إنَّك يافعٌ، وبالنِّسبة إلى يافعٍ فإنَّه حتَّى الأشياء المتعلِّقة باليافعين تكون في غاية الأهمِّيَّة، ذلك أنَّها مرتبطةٌ بمرحلته العمريَّة، وبتجاربه، وبمهاراته التي حصل عليها من التَّجارب ومن التَّفكُّر في تلك التَّجارب. من جهةٍ أخرى تعدني بأن تكتب إليَّ شيئاً كلَّ خمسة أيَّام: لشدَّ ما سأكون ممتنَّاً إذا ما فعلت، لتبرهن لي بذلك أنَّك تمتلك قوَّة إرادةٍ كبيرة. لَسَوف أردُّ على رسائلك دوماً (كلَّما استطعتُ) وبروحٍ عاليةٍ من الجدِّيَّة.

عزيزي، أنا لا أعرفك إلا من خلال رسائلك ومن خلال الأخبار التي ترِدُني عنك من قبل الكبار: أعلم أنَّك فتىً حاذقٌ، لكن لماذا لم تكتب إليَّ سطراً واحداً عن رحلتك إلى البحر؟ أتحسبها أمراً غير مهمٍّ؟ كلُّ أمرٍ يتعلَّق بك هو بالنِّسبة إليَّ شيءٌ في غاية الأهمِّيَّة ويعنيني أكثر ممَّا تتصوَّر؛ حتَّى ألعابك.

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXVIII

فَلْنَلْهُ معاً

عزيزي جوليانو،

ما أحوالك في المدرسة الجديدة؟ ما الذي يروقك أكثر من سواه: العيش قرب البحر أم العيش في الغابة، وسطَ الأشجار الضَّخمة؟

إذا أردت أن تسدي إليَّ معروفاً، عليك أن تصف لي نهاراً كاملاً من نهاراتك، منذ نهوضك من السَّرير إلى أن تخلد ثانيةً إلى النَّوم في المساء. على هذا النَّحو يكون في مقدوري أن أتخيَّل حياتك بصورةٍ أفضل، وأن أراك بكلٍّ حركاتك وإيماءاتك تقريباً.

صف لي الوسطَ المحيطَ أيضاً، رفاقَك، معلِّميك، الحيوانات، كلَّ شيء: اكتب في كلٍّ مرَّةٍ بضعةَ أسطر، وهكذا لن يُعييك الأمر، ولتكتبْ كما لو كنتَ تريد إضحاكي، كيما تتسلَّى أنت أيضاً.

عزيزي، أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXIX

يا لكَ مِن فتىً كبير

جوليانو!

مرحى!

لقد تسلَّمتُ صورتك الفوتوغرافيَّة ولَشَدَّما فرحتُ برؤية شخصك العظيم. لا بدَّ أنَّك كبرتَ كثيراً عن الصُّورة الأخرى المبعوثة إليَّ آنفاً، كبرتَ وتغيَّرت. أنت فتىً كبيرٌ الآن. لماذا توقَّفت عن الكتابة إليَّ؟

أنتظر رسالةً طويلةً منك.

أعانقك.

أنطونيو

الرّسالة XXX

ساعةُ اليدِ الأولى

عزيزي جوليانو،

أرى بغبطةٍ، من خلال رسالتك، أنَّك بتَّ تكتب على نحوٍ أفضل: لديك أسلوبُ شابٍّ كبيرٍ في الكتابة.

لماذا أعجبك فيلمُ أطفال الكابتن غرانت؟ عليك أن تسهب أكثر قليلاً بالكتابة لي وأن تصف لي مُجريات حياتِك، بماذا تفكِّر، وأيُّ الكتب تروقك، إلخ.

إنَّني مسرورٌ أنَّ السَّاعة أعجبتك؛ فلا تخشَ كثيراً أن تضعها في يدك، حتَّى في الخارج؛ إذا ما أوثقت جيِّداً إلى المعصم فإنَّها لا يمكن أن تضيع، إلَّا في حال جازفت وأنت خارج المنزل بالخوض في رِياضاتٍ عنيفة كالملاكمة، وما يشبهها. أيُّ الألعاب تحب؟

عزيزي جوليانو، أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXXI

"البَّبغاءُ بخير!"

عزيزي دِليو،

كتبت إليَّ أربعة أسطرٍ تبدو وكأنَّها مأخوذة من كتاب تعليم القواعد للأجانب: "الببَّغاء بخير!" (بلِّغه أحرَّ تهانيَّ وتمنِّياتي!).

ما رأيك ببيكويك[1]، وكيف يجري تقديمك للامتحانات؟ هل ترتعش خوفاً أثناء ذلك أم أنَّك واثقٌ من نفسك؟

منذ مدَّةٍ وأنت لا تكتبُ إليَّ إلَّا النَّزر اليسير وعن أشياء لا تثير الاهتمام إلَّا قليلاً. لماذا؟ أسهبْ قليلاً بالكتابة.

أقبِّلك.

أنطونيو

---

(1) "مذكَّرات بيكويك" هي أولى روايات تشارلز ديكنز، (م).

الرّسالة XXXII

القردُ المفكّر

عزيزي دِليو،

أرى أنّك تهتمُّ كثيراً بالقِرَدة. الصُّورة التي أرسلتها إليَّ مأخوذةٌ بإتقان: لا شكَّ أنّها لِقردٍ مفكّرٍ. لعلّه يفكّر في قرون الخرنوب التي سيأكلها وبالأشياء الأخرى التي ستمرِّرها إليه إدارة الحديقة كوجبةِ طعام.

ماذا عن طعام الببّغاء؟ لقد تحدّثتُ عن الخضار، ولكنّني كنت أشيرُ إلى العصافير. ماذا يأكل طائرُك؟ خضاراً طريَّة، أم ثماراً مجفَّفةً وبقولاً، كالفولِ، والجوزِ، والحِمّصِ، واللوز؟

عندما كنت صبيّاً امتلكنا في منزلنا طائر دُرَّةٍ[1] جيء به من إثيوبيا: كان يمضي نهاره بأكمله في قرضِ الفول والحِمّص (أمّا ثمار الجوز واللوز فكنّا نأكلها نحن) وكان ثقيلَ الدَّم كثيراً لأنّه لم يكن يحسن عمل شيءٍ آخر كما لم يكن جميلاً البتَّة: كانت له رأسٌ كبيرةٌ وثخينةٌ ثخانة جسمِه، وكان لونه رماديّاً ضارباً إلى الصُّفرة. آملُ أن يكون طائرك أجملَ وأظرف بكثيرٍ.

اكتب إليَّ شيئاً عن قراءاتك. لك منّي أطيب التّهاني لمسيرتك الدّراسيّة وللشّعار الذي حصلتَ عليه.

أعانقك بحبٍّ كبير.

أنطونيو

---

(1) ويسمّى كذلك البدجريقة، من أنواع الببغاوات الصّغيرة طويلة الذّيل التي تربّى على نطاقٍ واسعٍ كطيور زينةٍ محبّبة، (م).

الرِّسالة XXXIII

الكلبُ ـ الطِّفلُ

عزيزي دِليو،

لماذا لم تعد تحدِّثني عن ببَّغائك الصَّغير؟ هل لا يزال حيّاً؟ ألعلَّك تُعْرِضُ عن ذكره لأنَّني، في إحدى المرَّات، نبَّهتك إلى أنَّك تتحدَّث عنه على الدَّوام؟

ها دِليو، مسرورٌ أنا لذلك!

تريد تانيا أن أكتب إليك لأخبرك أنَّني عندما كنت في مثل سنِّك حصلتُ على جرو، وأنَّني انقلبتُ نصفَ مجنونٍ ابتهاجاً بذلك. اعلمْ! إنَّها حقيقةٌ خالصةٌ أنَّ امتلاك كلب (حتَّى وإن كان صغيراً، صغيراً جدّاً) هو أمرٌ يبعث على الرِّضى والحبور أكثر بكثيرٍ من امتلاك ببَّغاء (لكنَّك ربَّما تظنُّ العكسَ)، ذلك أنَّه يلعبُ مع سيِّده، ويولعُ به... أمَّا كلبي فمن الواضح أنَّه بقي طفلاً مدلَّعاً، فلكي يُظهِر لي حميَّةَ عواطفِه كان ينقلب على ظهره ويتبوَّل على نفسه.

يا لَها مِن صَوبنةٍ! لقد كان صغيراً حقّاً، صغيراً جدّاً حدَّ أنَّه لم يُفلِح أمداً طويلاً في صعودِ درجاتِ السُّلَّم! كان له شعرٌ أسود وطويلٌ، وكان يبدو ككلب بَطباطٍ[1] مُنَمنَمٍ. لقد جززتُ شعرَه على شاكلةِ أسدٍ، بيد أنَّه لم يبدُ جميلاً إذا ما أردنا توخِّي الموضوعيَّة في

(1) نوعٌ من الكلاب كثيف ومجعَّد الشَّعر يحبُّ البطبطة في الماء، (م).

الحكم عليه، بل إنَّه أصبح بالأحرى قبيحاً، بل وفائق القبح عندما أفكِّر فيه الآن. لكن مع ذلك لَكَم أمتعني ولَكَم أغرمتُ به!

لعبتي المفضَّلة كانت هذه: حين كنَّا نخرج للتَّنزُّه في الحقول، كنت أضعه على صخرةٍ بارزةٍ وأبتعدُ دون أن يجرؤ، فيما هو يحدِّق وينبحُ، على القفز. كنت أبتعد على نحوٍ متعرِّج، ثمَّ أختبئ في وَهْدَةٍ أو في مجرى ماء: لَشَدَّما كان الأمر يسلِّيني، لأنَّ المسكين، الذي كان من جهةٍ أخرى لا يزال فتيَّاً جدَّاً آنذاك، كان يحدِّق نابحاً من وراء كلِّ الحِجارة، وكان يطلُّ برأسه من بين الحفرِ الصَّغيرة (لكن الكبيرة بالنِّسبة إليه) فيخرجُ إذَّاك عن عقله.

يا له من عيدٍ، عندما كنت أتركه يعثر عليَّ في النِّهاية! ويا لَوفرةِ البول!

عزيزي، هل ستكتب إليَّ الآن عن ببَّغائك؟

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXXIV

الببّغاء العليل

عزيزي دِليو،

لقد تسلَّمتُ ريشة الببَّغاء والأزهار الصَّغيرة التي أعجبتني أيما إعجاب. بيد أنَّني غير قادرٍ على تصوُّر حال الببَّغاء وعلى تفسير سقوط أرياشٍ بمثل هذا الحجم الكبير منه؛ ربَّما أسقمت التَّدفئة الاصطناعيَّة جلدَه، ولعلَّه ليس بالأمر الخطير ومع الرَّبيع قد يغادرُه أقلُّ شعورٍ بالحُكاك. ربَّما عليك أن تطعمه شيئاً غضَّاً ينوبُ مَنابَ ما يأكله بنو جنسِه في موطنه الأصليِّ، ذلك أنَّني قرأت أنَّ الطُّيور المربَّاة في المنزل تعاني، مع الأطعمة غير الملائمة، من نقصِ الفيتامينات، وتفقدُ ريشها ويصيبها نوعٌ من الجرب (ليس بمُعدٍ): أنا نفسي رأيت عصفوراً صار مريضاً على هذا النَّحو لأنَّه كان يقتات دائماً على لُباب خبزٍ رديءٍ، وقد برِئ من المرض بإضافة بعض الخضار الورقيَّة إلى قائمة طعامه.

لم أعد أذكرُ بأيِّ معنىً حدَّثتك من قبلُ عن "الخيال": ربَّما كنتُ ألمِّح إلى نزعةِ الأحلامِ اللامُجدِية، إلى تشييد ناطحات سحابٍ على رأس دبُّوسٍ، وسِقْ على ذلك.

عزيزي، أعانقكَ بقوَّة.

أنطونيو

الرّسالة XXXV

الأرياشُ تنمو

عزيزي دِليو،

هذه المرَّة لم تصلني أيُّ رسالةٍ منك.

من صورةِ جوليانو الفوتوغرافيَّة استطعتُ رؤية ركنٍ من غرفتِك، وفي ذلك الرُّكن يُرى قفصُ الببَّغاء. مؤسفٌ أنَّه من غير الممكن تمييز الببَّغاء. آملُ أنَّه، مع الخضار الورقيَّة الغضَّة (التي ينبغي أن تقطَّعَ قطعاً صغيرة) والذُّرة البيضاء قد تماثل للشِّفاء، وعادت الأرياش لتنمو طويلةً وبرَّاقة.

أقبِّلك.

أنطونيو

الرِّسالة XXXVI

درس التَّاريخ

الأثير إلى قلبي دِليو،

أشعرُ أنَّني متعَبٌ قليلاً ولا أستطيع أن أكتب لك كثيراً.

اكتب إليَّ دائماً وعن كلِّ ما يثير اهتمامك في المدرسة.

أظنُّ أنَّ التَّاريخ يروقك، تماماً مثلما كان يروقني عندما كنت في سنِّك، ذلك أنَّه متَّصلٌ بالبشر الأحياء ولا بدَّ لكلٍّ ما هو متَّصلٌ بالبشر، بأكبر قدرٍ ممكنٍ من البشر، كلِّ البشر في العالَم طالما أنَّهم يتَّحدون معاً لبناء مجتمعٍ ويعملون ويكافحون ويرتقون بأنفسهم، أن يروقك أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. أليس كذلك؟

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XXXVII

رأسُ النَّعامة

عزيزي دِليو،

لم أقرأ الكثير لويلز، ذلك أنَّ كتبه لا تروقني كثيراً. أعتقد أنَّه لن يكون في الأمر خسارةً كبيرةً لسيرورةِ تكوُّنك الفكريِّ والمعنويِّ إذا لم تقرأها أنت الآخر. حتَّى كتابه عن تاريخ العالم لم يعجبني كثيراً، ولئن حاولَ فيه (وقد شكَّل ذلك بالتَّأكيد تجديداً، أقلُّه في الأدب التَّاريخي لأوروبَّا الغربيَّة) أن يوسِّع الأفقَ التَّاريخيَّ التَّقليديَّ، معطياً شأناً ليس فقط للإغريق، والمصريِّين، والرُّومان وغيرهم، بل أيضاً للمُنْغوليِّين، والصِّينيِّين، والهنود، وهلمَّ جرَّاً. ككاتب قصصٍ خياليَّة فإنَّه يبدو لي مغرقاً في التَّقنيَّة والحشو، وأمَّا كمؤرِّخٍ فتُعوِزُه المبادئ الفكريَّة، والتَّنظيمُ والتَّفكير المنهجيُّ.

أعلمني إذا كانت تروقك طريقتي هذه في الكتابة وإذا كنت تفهم كلَّ شيءٍ.

لم أجبْ على رسالتك السَّابقة.

لقد أحببتُ فكرتك عن رؤية العالَم مسكوناً بفِيَلَةٍ منتصبةٍ على قائمتيها الخلفيَّتين، وبأدمغةٍ متطوِّرةٍ للغاية: من يعلم كم من ناطحات السَّحاب سيتوجَّب عليها أن تشيِّدَ، دون شكٍّ، إذا ما أرادت البقاء بأعدادٍ هائلة على سطح الكرة الأرضيَّة! لكن ما نفعُ الدِّماغ من دون

يدين؟ للنَّعام رأسٌ مرتفعٌ وطليقٌ، وهو يقف على ساقين فقط، بيد أنَّ دماغه ليس متطوِّراً كفايةً لأجل تلك المهمَّة. أمَّا بالنسبة إلى الإنسان، عِبر صيرورة ارتقائه، فيبدو أنَّ الكثيرَ من الظُّروف المؤاتية قد تضافرت معاً لتساعدَه على أن يصيرَ ما كانَه حتَّى قبل أن تتكوَّن الإرادةُ المحسومةُ الغاية والعقلُ الجديرُ بتنظيم الوسائلِ التي لا بدَّ منها لبلوغِ الغايةِ إيَّاها. التَّعدادُ يصبحُ نوعيَّةً في حالةِ الإنسان، لا في حالةِ الكائنات الحيَّة الأخرى، على ما يبدو.

اكتب إليَّ مُسهِباً. أعانقك.

أنطونيو

الرّسالة XXXVIII

الفيلُ الآليُّ

الأثير إلى قلبي دِليو،

لا عِلم عندي إذا ما كان الفيلُ قادراً (أو سبق أن امتلك تلك القدرة) على الارتقاء إلى أن يصبح في الأرضِ كائناً قادراً، كما الإنسان، على تسيُّدِ قوى الطَّبيعة وتوظيفها لتحقيق غاياته الخاصَّة، متخطِّياً الحقائق الموضوعيَّة. واقعيَّاً لم يحظَ الفيلُ بنفسِ سيرورة الارتقاء التي حظي بها الإنسان، وطبعاً لن يحظى بها مستقبلاً لأنَّ الإنسان ينتفعُ من الفيل، بينما الفيلُ لا يمكنه أن ينتفع من الإنسان، ولا حتَّى كطعامٍ له. ما تفكِّر فيه من إمكانيَّاتٍ محتملةٍ للفيل، أعني أن تتكيَّف أطرافه من أجل الأعمال التي تتطلَّب خبرةً، هو أمرٌ لا ينسجمُ مع الواقع: في الحقيقة يمتلك الفيلُ، كعضوٍ "تقنيٍّ"، خرطوماً ومن وجهة نظرٍ "فِيليَّةٍ" فإنَّ هذا الخرطوم يخدمه على نحوٍ مذهلٍ في اقتلاع الأشجار، وفي الدِّفاع عن نفسِه في ظروفٍ محدَّدة، وغير ذلك.

لقد كتبتَ تقول إنَّ التَّاريخ يعجبك وعلى هذا المنوال وصلنا إلى خرطوم الفيل. أعتقد أنَّ دراسة التَّاريخ لا تتطلَّب إطلاق صيغةِ "ماذا إذا" على تصوُّراتنا عمَّا سبقَ أن حدث... (ماذا إذا قام الفيلُ على قائمتيه الخلفيَّتين ليمنحَ دماغَه أعظمَ ارتقاءٍ ممكنٍ، ماذا إذا... ماذا إذا...؛ وماذا إذا وُلِد الفيلُ بعَجَلاتٍ؟ سيكون تِراماً طبيعيَّاً! وماذا إذا امتلك أجنحةً؟ تخيَّل جائحةً من الفِيَلة تشبه جائحة الجراد!).

بلى إنَّ دراسة التَّاريخ بطبيعته المتقلِّبة أصلاً لَهِيَ أمرٌ فائق الصُّعوبة، ذلك أنَّه في جزءٍ كبيرٍ منه فاقدٌ لكلٍّ وثيقةٍ وحُجَّة؛ فكيف عساه يكون الأمرُ بالنِّسبة إلى امرئٍ يضيع وقته في رسم فرضيَّاتٍ لا أساس لها؟ ثمَّ إنَّه في فرضيَّاتك ثمَّة خلعٌ فادحٌ للصِّفات البشريَّة على الأشياء الأخرى. لماذا ينبغي على الفيل أن يرتقي على شاكلة الإنسان؟ لكن من يعلم إذا ما كان ثمَّة فيلٌ عجوزٌ حكيمٌ أو فُيَيْلٌ فتيٌّ غريب الأطوار يضعُ، من وجهة نظرِه، فرضيَّاتٍ عن عدمِ إمكانيَّة تحوُّل الإنسان إلى كائنٍ مُخرطَم!

أرتقبُ رسالةً طويلةً منك حول هذا الموضوع.

ههنا لم يَبْرَد الطَّقس كثيراً بعد. ثمَّة على الدَّوام زهورٌ متفتِّحة. ليس عندي أيُّ طائرٍ، لكنَّني أرى في الفُسحةِ دائماً زوجين من الشَّحارير وقططاً تختبئ لتنقضَّ عليهما؛ لكن يبدو أنَّ الشَّحارير لا تعبأ بالقطط وهي دائماً مغتبطةٌ ورشيقةٌ في حركاتها ونُقْلاتِها.

أعانقك.

أنطونيو

الرّسالة XXXIX

ركلةٌ مُسَدَّدة

عزيزي دِليو،

هذه المرَّة لم تحدِّثني عن الفِيَلة كحَمَلَةِ حضارةٍ افتراضيَّة. أعطِ الفِيَلة صابوناً وانظر كم هي قادرةٌ بهذا المعنى على حمل الحضارةِ (أو مظهرٍ من مظاهرِها) في قاعةِ الحمَّام. يا لَلفِيَلة المساكين! لا شكَّ أنَّك حدَّثتني عن كثيرٍ من الأمور، وعليَّ أن أبدأ معكَ سلسلةً من المُناظرات.

حسنٌ جداً! لكن ما أكثر ما يثير اهتمامك؟ ذات مرَّةٍ كتبت إليَّ أنَّك مهتمٌّ بالتَّاريخ، ولكنَّك لم تكن جديراً بعد ذلك بمواصلة المسألة وانسلَلْتَ هارباً على ظهور الفِيَلة؛ والآن يبدو لي أنَّك مهتمٌّ بالقِرَدة من جهةِ أنَّهم الأجدادُ الأعلَونَ للإنسان. لكن حتَّى هنا يبدو لي ممكناً القول إنَّك تؤثِرُ التَّخييلَ على التَّاريخ، وإنَّه أكثر ملاءمةً لك أن تدرسَ التَّاريخ الواقعيَّ، هذا الذي يمكن تدوينه استناداً إلى الحجج الدَّقيقة والملموسة.

أمَّا إطلاق التَّخيُّلات على فرضيَّاتٍ علميَّة فذلك كان عهدَ النَّاس قبل خمسين سنة، أولئك الذين عاشوا في ظروفٍ من الصِّراع الأيديولوجيِّ فائقةِ العُسر. اليوم، كثيرٌ من القضايا سقطَ في العَدَم لأنَّ الحياة تخطَّتْ البطلَ وخصمَه معاً، وخلقتْ في المقابلِ المشيِّدَ. للأسف صعبٌ أن نتحرَّر من الأشياء الميتة؛ فلتعطِنا أنتَ ركلةً في المركز ولتدرسْ فقط الأشياء المحسوسة.

أعانقك.

أنطونيو

الرِّسالة XL

تعلّمِ التّميزَ

الأثير إلى قلبي دِليو،

يمكنك أن تكتب عن بوشكين متى أردتَ؛ لا بلِ الأفضل أن تتروَّى في الأمر جيِّداً، بما يتيحُ لك أن تقدِّمَ لي برهاناً مقنعاً على مهارتك في التَّفكير، وفي التَّأمُلِ والنَّقد (أي على تمييز الحقيقيِّ من الزَّائف، والثَّابتِ من المحتمَل ومن شبهِ الحقيقيِّ). ولكن ينبغي ألَّا تغضبَ: أنا أعرفُ مرحلتك العمريَّة، وأعرفُ استعداداتك ومن ثَمَّ فأنا أعرف كيف أحكمُ بموضوعيَّة (حتَّى وإن كنتُ أحبُّكَ كثيراً كثيراً، وبالتَّالي أن أكون موضوعيّاً هو أمرٌ فائق الصُّعوبة).

من الصَّعب العثور على كتبٍ عن بوشكين وغوركي؛ لكن ما أنت صانعٌ؟ إنَّهما مُسنَّان الآن، بينما ثمَّة هذه الأيَّام أدبٌ حديثٌ يُؤلَّفُ عن هذين الكاتبين، أدبٌ نقديٌّ مُنجزٌ من خلال اكتشافات المحفوظاتِ المنفتحة على علمِ فقهٍ أدبيٍّ أكثر فتوَّةً وجرأة.

إنَّني في غاية السُّرور لأنَّك في صحَّةٍ جيِّدة ولأنَّك لا تملُّ الدِّراسة.

عزيزي، أعانقك وأوكِّلك بعناقِ أمِّك كثيراً بالنِّيابة عنِّي.

أنطونيو

الرِّسالة XLI

دقائقُ الأبِ الخمس

عزيزي دِليو،

أنتظرُ ردَّك عن سؤالي المتعلِّق ببوشكين، دونما عَجَلة؛ عليك أن تدعِّمَ نفسَك جيِّداً وأن تأتي بأفضل ما عندك.

كيف تسير أحوال المدرسة معك ومع جوليانو؟ بما أنَّكما ستحصلان على بيانِ تقييمٍ كلَّ شهرٍ فإنَّه سيصبح أكثر يُسْراً أن تضبطا مسيرةَ الفصول الدِّراسيَّة.

أشكرك لأنَّك عانقتَ أمَّك بقوَّةٍ نيابةً عنِّي: أظنُّ أنَّ عليك عملَ ذلك كلَّ يومٍ، كلَّ صباحٍ. إنَّني أفكِّر بكم على الدَّوام: وهكذا سأتخيَّلكم كلَّ صباحٍ قائلاً لنفسي: ها هم ابنايَ وجوليا يفكِّرون بي في هذه اللحظة. إنَّك الأخ الأكبر، ولكن عليك أن تُبلِغ جوليانو بذلك أيضاً؛ حيث تلتزمون كلَّ يومٍ بطقسِ "دقائق البابا الخمس". ما رأيك في ذلك؟

أقبِّلك.

أنطونيو

الرّسالة XLII

النّوابغُ قلّةٌ

عزيزي دِليو،

علمتُ من "ماما" جوليا أنَّ رسالتي الأخيرة (أمْ رسائل أخرى أيضاً؟) قد تركت في نفسِك ضِيقاً وغمًّاً. لماذا لم تكتب إليَّ شيئاً عن ذلك؟ يُستَحسَنُ، عندما يُحزنك شيءٌ ما في رسائلي، أن تُنبئني بذلك وتفسِّرَ لي مبرِّراتك. إنَّك غالٍ كثيراً على قلبي ولا أريد أن أسبِّب لك أيَّ ألمٍ: إنَّني بعيدٌ جدًّاً ولا أستطيع أن أداعبك وأساعدك، مثلما أشتهي أن أفعل، في حلِّ المسائل التي تتولَّدُ في ذهنك. عليك، مثلاً، أن تعيد تذكيري بالمسألة التي طرحتَها عليَّ ذات مرَّةٍ حول تشيخوف ولم أجبك عنها: لقد نسيتُ أمرَها تماماً. إذا كنتَ تُحامي عن أنَّ تشيخوف كاتبٌ اجتماعيٌّ، فأنت محقٌّ، لكن لا تزدهِيَنَّ بذلك، لأنَّ أرسطو قال في ما مضى إنَّ جميع البشر حيواناتٌ اجتماعيَّة. أعتقد أنَّك أردتَ قولَ المزيد، بما معناه أن تشيخوف قد عبَّرَ عن حالةٍ اجتماعيَّةٍ معيَّنة، عبَّرَ عن بعضِ مظاهر الحياة في عصره بطريقةٍ تجعل منه جديراً بأن يُسَمَّى كاتباً "تقدُّميًّاً". في طبيعةِ الحال لا يمكن قولُ كلِّ شيءٍ عن تشيخوف في كلماتٍ قليلة. وكذلك الأمرُ عن تورغينيف[1].

(1) إيفان سيرجييفيتس تورغينيف (1818- 1883) روائي وكاتب مسرحي ومؤلف قصص قصيرة روسي، من أعظم أعماله القصصية مجموعته القصصية "مذكرات صياد" وهي تمثل عمود الرواية الروسية الواقعيَّة، وتُعَدُّ روايته "الآباء والبنون" من أعظم روايات القرن التاسع عشر، (م).

لقـد أشـرتَ إلى أنَّ صـحيفة الطَّليعـة، في الماضـي، كانـت تُفـرِدُ مساحةً كبيرةً لتولستوي وأخرى صغيرة، أو لا شيء البتَّة، لغوركي.

اليوم وقد رحلَ غوركي اشتدَّ الألمُ على فقدانـه، وهـذا يبـدو أمـراً في منتهى الإجحاف. لكن ينبغي في كلٍّ لحظةٍ أنَ نطلق أحكامنا بـروحٍ نقديَّة، ومِن ثَمَّ علينا ألا ننسى أنَّ تولستوي كان كاتباً "عالميَّاً"، واحـداً من كتَّاب نادرين في كلٍّ بلدٍ أمكنهم بلوغ الكمالِ الأقـصى في الفـنِّ، وقـد أثـارَ ويـثيرُ فيـضاً مـن المـشاعر في كـلٍّ الأَصـقاع، حتَّـى عِـبر التَّرجمـاتِ الرَّديئـة، وحتَّـى في نفـوسِ رجـالٍ ونـساء اقتلعـتْ منـهم مشقَّاتُ الحياة نزعةَ الإنسانيَّة ولم ينالوا من الثَّقَافةِ إلَّا النَّزر اليسير. لقـد كان تولستوي حاملَ حضارةٍ وجمـالٍ بحـقٍّ ومـا مـن أحـدٍ في الـزَّمن المعاصر استطاع أن يضاهيه بعد: إذا أردنا البحث عن أندادٍ لـه ينبغـي التَّفكير في هوميروس، وإسخيلوس، ودانـتي، وشكـسبير، وغوتِـه، وسرفانتس، وآخرين قليلٌ عديدُهم.

إنَّني مسرورٌ برسالتك، وأشدُّ سروراً لأنَّك في حالٍ أفضل، لأنَّـك تتسلَّق الأسوارَ لتشاهدَ الكسوف[1]، ولأنَّـك سـتحافظُ علـى مواقيـتِ الاستحمام والتنزُّه في الأحراش وستتعلَّم الإيطاليَّـة. أن يقـوى عـودُك هو من قبيلِ العملِ أيضاً.

عزيزي، أعانقك بمحبَّةٍ عارمة.

أنطونيو

---

(1) ثمَّة مفردة واحدة في اللغة الإيطاليَّة تشير إلى الخـسوف والكـسوف معـاً ولا تميِّز بينهما إلا بإلحاقها بصفةِ "شمسيٌّ" أو "قمري"، وهنا لم يلحقها غرامـشي بأيٍّ من الصِّفتين؛ ما يعني أنَّه ربَّما يعـني الخـسوف أو الكـسوف أو الاثـنين معاً. وأجودُ الكلام في العربيَّة أنَّ الكسوف للشَّمس، والخسوف للقمر، غـير أنَّ "الكسوف" يصحُّ مع الاثنين ولذلك استخدمناه هنا، (م).

الرِّسالة XLIII

الطِّليعيُّ المِقدام

عزيزتي جوليا،

هلا أخبرتِ دِليو أنَّ الخبر الذي بعث به إليَّ قد أثار اهتمامي على نحوٍ بالغ، ذلك أنَّه مهمٌّ وفائقُ الجدِّيَّة. كما آملُ أنَّ أحداً ما استطاع، بقليلٍ من المطَّاط، أن يُصلِح الحماقةَ التي ارتكبها جوليانو وأنَّ القبَّعة لم تتحوَّل، برغم كلِّ شيءٍ، إلى قطعةٍ من الورق الرَّديء.

أتذكرين، عندما كنَّا في روما، كيف كان دِليو يعتقدُ أنَّني قادرٌ على ترميم كلِّ الأشياء المحطَّمة؟ لا شكَّ أنَّه نسي ذلك الآن. أيملك هو أيضاً نزعةَ الإصلاح هذه؟ هذا، في رأيي، علامةٌ... على روحٍ بنَّاءة، على طِباعٍ إيجابيَّة، تتجاوزُ اللهوَ بألعابِ تركيب المباني والمركَبات.

تخطئين إذ تظنِّين أنَّ ميولي إلى الأدب والفلسفة بدأت مع نعومة أظفاري، كما كتبتِ. لقد كنتُ، على العكس من ذلك، طليعيّاً مقداماً لا أخرجُ من منزلي دون أن آخذ معي حبوب قمحٍ وأعوادَ ثقابٍ ملفوفةً في قطعٍ من النَّسيج المشمَّع، تحسُّباً لاحتمالِ أن يُقذَف بي إلى جزيرةٍ مهجورةٍ وأُترَكَ لوسائلي الخاصَّة فحسب.

لقد كنتُ مِن ثَمَّ بنَّاءَ قواربَ وعرباتٍ مفعماً بالجرأة ومُلِمّاً تمامَ الإلمامِ بالمصطلحاتِ البحريَّة: أكبر نجاحاتي كان عندما طلبَ منِّي حرفيٌّ محلِّيٌّ أن أصنع له نموذجاً ورقيّاً لسفينةٍ شراعيَّةٍ فخمةٍ بطابقين،

كيما يعيدَ نسخَها باستخدام صفائحِ القصدير. كنتُ مأخوذاً بهذه المسائل لأنَّني، فوق ذلك، كنتُ قد قرأت وأنا في السَّابعة رُبينسون والجزيرة الغامضة. أعتقد، عدا عن ذلك، أنَّ حياةً طفوليَّةً كتلك التي كانت قبل ثلاثين سنة هي أمرٌ متعذِّرُ الحدوث اليوم: اليومَ يولَدُ الأطفالُ وهم في الثَّمانين، كما في أسطورة لاو-تسي الصِّينيَّة. الرَّاديو والطَّائرة حطَّما إلى الأبد "الرُّبينسونيَّة" التي شكَّلت مِخيالَ كثيرٍ من الأجيال. إنَّ اختراع ألعاب التَّركيب هو في حدٍّ ذاته دليلٌ على أنَّ الطِّفلَ يتفكْرَنُ بسرعة. بطلُه الخياليُّ لا يمكن أن يكون رُبينسون، بل الحارسُ أو اللصُّ العلميُّ، أقلُّه في الغرب.

عزيزتي، أعانقكِ والطِّفلين.

أنطونيو

الرِّسالة XLIV

المَرَدَةُ الثَّلاثة

غاليتي جوليا،

في تراسُلِنا تغيبُ، أحياناً، "المراسَلةُ" المؤثِّرة والواقعيَّة. وإذا أضفنا إلى ذلك عنصرَ الزَّمن، هذا الذي يُنسينا ما كنَّا قد كتبناه آنفاً، فإنَّ انطباعاً بـ "مناجاة الذَّات" يتعاظمُ عندي.

ألا يبدو لك الأمر كذلك؟ تخطرُ في ذهني الآن قصَّةٌ إسْكَنْدِنافيَّةٌ قصيرة: ثلاثة مَرَدَةٍ يعيشون في إسْكَنْدِنافيا بعيداً عن بعضهم البعض بُعْدَ الجبالِ العظيمة. بعد ألفِ سنةٍ من الصَّمت، يهتف الأوَّل بالآخرَين قائلاً: "أسمعُ خوارَ قطيعٍ من الأبقار!". بعد ثلاثمائةِ سنةٍ يجيبُ الماردُ الثَّاني: "لقد سمعتُ أنا أيضاً الخوارَا!". ثمَّ بعد ثلاثمائةِ سنةٍ أخرى ينذرهما الماردُ الثَّالث: "إذا استمرَّيتما بإثارةِ الصَّخب هكذا فإنِّي راحلٌ!".

هو ذا! ثمَّة ريحٌ شرقيَّةٌ تعطي انطباعاً بأنَّنا سُكارى.

عزيزتي، أعانقكِ بحنانٍ مع طفلينا.

أنطونيو

الرِّسالة XLV

اللعبُ مع اسْتِليفي

عزيزتي جوليا،

لقد راقني ما كتبتِه عن دِليو التِّلميذ، عن رصانته الباطنيَّة التي لا تنفصمُ عن حبِّه القويِّ للابتهاج.

أشعرُ، مع مرارةٍ جدٍّ لاذعة، أنِّي محرومٌ من المشاركة في إنماء شخصيَّتَي وحياتَي الطِّفلَين؛ ومع ذلك سرعان ما غدوتُ صديقاً لهما وظفرتُ باهتمامهما.

لا أنفكُّ أتذكَّرُ حفيدةً صغيرةً لصاحبةِ البيت الذي سكنتُه في روما: كان لها من العمر أربع سنواتٍ آنذاك، وكانت تُنادَى باسمٍ فائق الصُّعوبة، مأخوذٍ من اللغة التُّركيَّة. لم تكن تُفلِح في فتحِ باب غرفتي، حيث كانت تقترب خلسةً لأنَّ الجدَّة أخبرتها أنَّه ينبغي ألَّا تُقلِق راحتي، لأنَّني أكتب دائماً. كانت تقرع البابَ بهدوءٍ واستحياءٍ، وعندما كنتُ أسأل: "مَن الطَّارق؟" كانت تجيب: "اسْتلِيفي! أتريد اللعب؟"؛ ثمَّ لا تلبث أن تدخلَ، وتقدِّم لي وجنتها لأقبِّلها، وتسألني أن أصنعَ لها الطُّيورَ والصُّورَ الغريبة، مِن قطراتِ الحِبر المرتشِقةِ سهواً على الورق.

غاليتي، أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

الرّسالة XLVI

ضربةُ شمسٍ

عزيزتي تانيا،

أصيبت إحدى ورداتي بضربةِ شمسٍ رهيبة: كلُّ الأوراقِ والأجزاء الأكثر غضاضةً احترقتْ وتفحَّمتْ؛ لها هيئةٌ مُغِمَّةٌ وموحشةٌ الآن، لكن هي ذي تُخرِجُ براعمَ مِن جديدٍ. لم تمُتْ، أقلُّه حتّى السَّاعة.

الفاجعةُ الشَّمسيَّة كانت محتومةً، ذلك أنَّني لم أستطع تغطيتها إلّا بورقةٍ حملتها الرِّيح بعيداً: لعلَّه اقتضى الحصول على حزمةٍ من القشِّ، من جهةٍ أنَّه ناقلٌ رديءٌ للحرارة وفي نفسِ الوقتِ واقٍ من الأشعَّة المباشرة. في جميع الأحوال تبدو احتمالاتُ البُرْءِ مبشِّرةً، بغضِّ النَّظر عن الاختلاطاتِ الفائقة.

لقد تأخَّرت البذورُ كثيراً في إطلاقِ البادرات: الزُّمرةُ كلُّها تعاندُ صنعَ الحياةِ التُّرابيَّة. لا بدَّ أنَّها كانت بذوراً شائخةً ومسوَّسةً في جزءٍ منها. أمَّا التي خرجت منها إلى هذا العالَم فستنمو ببطءٍ شديد. عندما أخبرتكِ مِن قبلُ أنَّ قسماً من البذور كان فائق الجمَال، كنتُ أقصدُ أنَّها تنفعُ للأكل. في الحقيقة بعضُ البادراتِ شبيهٌ، على نحوٍ غريبٍ، بالبقدونس والبصلِ أكثر من شبهه بالزُّهور.

كلَّ يومٍ تتملَّكني الرَّغبة في سحبِها قليلاً لكي أساعدها على النُّمو، لكنَّني أبقى متحيِّراً بين فكرتين، فكرةِ العالَم كما هو، وفكرةِ التَّربية:

هل أترك الطَّبيعة التي لا تخطئ أبداً، والتي هي خيِّرةٌ في الأصلِ، تعملُ عملها، أم أرغمُ الطَّبيعةَ، مُقحِماً في مسارِ نشوئها وارتقائها يدَ الإنسان الخبيرة ومبدأ التَّسلُّط. حتَّى اللحظة لم تبلغ تلك الحيرةُ خِتْمَتَها، وفي رأسي يصطرعُ المذهبان.

نبتات الهندباء السِّتُّ أحسَّت على الفورِ أنَّها في منزلها ولم تخشَ الشَّمسَ: هي ذي قد أطلقت ثمارَها التي ستعطي بذورَ المواسمِ القادمة. نبتاتُ الأضاليا والخيزران نائمةٌ تحت التُّراب ولم تعطِ بعدُ أيَّ علامةٍ من علامات الحياة! أعتقد أنَّ الأضاليا، على وجه الخصوص، فاقدةٌ حقّاً لكلِّ أملٍ في الحياة.

وبما أنَّنا نخوض في هذه المسألة، أودُّ أن أطلب منكِ أن ترسلي إليَّ بعض أنواع البذار: 1. بذار جزرٍ، لكن من النَّوع الذي يُقالُ له باستيناكا[1]، ذلك أنَّه يمثِّلُ إحدى ذكرياتِ عهد صباي الأوَّل المحبَّبة: كانوا في ساسَّاري يبيعون منه ما يبلغُ وزنه نصفَ كيلو وكان ثمنه غالياً جدّاً قبل الحرب، مقدِّماً نفسه كمنافسٍ قويٍّ للعرقسوس؛ 2. بذار جلبانٍ؛ 3. بذار إسبانخٍ؛ 4. بذار كَرَفْسٍ. فعلى مساحةِ ربعِ مترٍ مربَّعٍ أريد أن أضعَ أربع أو خمس بذورٍ من كلِّ نوعٍ؛ وأراقبَ مِن ثَمَّ ما سيحصل.

عزيزتي، أعانقكِ.

أنطونيو

(1) الجزر الأبيض، واسمه العلميُّ Pastinaca sativa، (م).

الرّسالة XLVII

الوردةُ المتماثلةُ للشِّفاء

عزيزتي تانيا،

أتعلمين، الوردةُ انبعثت كليّاً من موتها. بين الثّالث والخامس عشر من حزيران، وعلى حين غرّةٍ، بدأت بإعطاء عيونٍ[1] ومِن ثَمَّ أوراقٍ، إلى أن اخضوضرتْ بالكامل؛ وها إنَّ لديها الآنَ غُصيناتٍ بطولِ خمسة عشر سنتيمتراً. لقد حاولت أيضاً أن تعطي زرّاً صغيراً جدّاً ما لبث بعد حينٍ أن ذبُلَ وهو آخذٌ بالاصفرار الآن. في أيّة حالٍ، ليس مستبعداً أبداً أن تقودَها وُرَيدةٌ خجولةٌ خجولة إلى الاكتمال في هذا العامِ بعينِه. لَكَم يسرُّني ذلك، فمنذ عامٍ على وجودي هنا وأنا مهتمٌّ بالظّواهرِ الكونيَّة (لعلَّ سريري، كما يزعمون في بلدتي، موجَّهٌ بحسبِ الوجهةِ الطَّيِّبة للسَّوائل الأرضيَّة وعندما أريحُ خلايا الجسد عليه فإنَّها تدورُ متساوقةَ الأنغامِ مع الكون برمَّته).

لقد انتظرتُ الانقلابَ الصَّيفيَّ بفارغِ الصَّبر، والآن إذْ تميلُ الأرضُ (لا شكَّ أنَّها تعتدلُ بعد الميلان) نحو الشَّمس، فإنَّني مغتبطٌ أكثر (المسألة متعلِّقةٌ بالضِّياء الذي تحمله المساءات وهو ذا الدَّفقُ الأرضيُّ!)؛ دورةُ الفصول، المرتبطةُ بالانقلابين وبالاعتدالَين،

---

(1) العيون في النَّبات هي الأجزاء التي تنمو البراعم منها، (م).

أحسُّها لحمَ جسدي؛ الوردةُ حيَّةٌ ومتفتِّحةٌ حتماً، ذلك أنَّ الحرَّ يروِّضُ الجليدَ وتحت الثَّلجِ تختلجُ الآنَ أوَّلُ البنفسجات؛ عدا ذلك فإنَّ الوقتَ يبدو لي كمثلِ شيءٍ فائق الجسامة، مُذ كفَّ الحيِّز عن الوجودِ بالنِّسبة إلي.

عزيزتي تانيا، سأنهي هذا الهذرَ وأعانقكِ.

أنطونيو

الرِّسالة XLVIII

شاروبيم[1] بلا أجنحة

عزيزتي تانيا،

تسلَّمتُ صورةَ الطِّفلَين الفوتوغرافيَّة وسُرِرتُ بها أيما سُرور كما يمكن أن تتخيَّلي. ولقد أحسستُ بارتياحٍ كبيرٍ لأنَّني تيقَّنتُ بعينيَّ من أنَّ لهما جسداً وساقَين: منذ ثلاثة أعوامٍ وأنا لا أرى إلَّا رأسين حتَّى بدأتُ أشكُّ في أنَّهما تحوَّلا إلى ملاكَي شاروبيم بلا أجنحةٍ مكانَ الأذنين. الحاصلُ أنَّني شعرتُ بحياةٍ أكثر توقُّداً.

أيَّتها الغالية، أعانقكِ بمودَّةٍ فائقة.

أنطونيو

---

(1) زمرةٌ من الملائكة في الدِّيانتين اليهوديَّة والمسيحيَّة، (م).

الرِّسالة XLIX

نهاري

عزيزتي تانيا،

منذ بضعة أيَّامٍ غيَّرتُ زنزانتي وجناحي (السِّجن مقسَّمٌ إلى أجنحة). كنتُ من قبلُ نزيلَ الجناحِ الأوَّل، الزَّنزانة رقم 13؛ والآن أصبحتُ في الجناح الثَّاني، الزَّنزانة رقم 22.

حياتي تمضي، كما من قبل، من أعلى إلى أسفل. أريد أن أصفها لكِ بشيءٍ من التَّفصيل؛ وهكذا يكون في مقدورك كلَّ يومٍ أن تتصوَّري ما أفعله.

الغرفة رحيبةٌ رحابة غرفةِ طالبٍ: بالنَّظرِ أحسبها بعرضِ ثلاثة أمتارٍ وطولِ أربعةٍ ونصف، وبارتفاع ثلاثةٍ ونصف. النَّافذة تطلُّ على الفسحة، حيث يُتنسَّم الهواء: ليست نافذةً نظاميَّةً، في طبيعة الحال: إنَّها "فمُ ذئبٍ" كما يمكن أن ندعوها، بقضبانٍ داخليَّة؛ لا يمكن أن يُرى منها سوى شريحة من السَّماء، كما لا يمكن النَّظر إلى الفسحة أو إلى أحد الجانبين.

موقع هذه الزَّنزانة أسوأ من موقع سابقتها التي كانت باتِّجاه جنوب/ جنوب ـ غرب (كانت الشَّمس تُرى قرابةَ السَّاعة العاشرة، ثمَّ عند الثَّانية كانت تحتلُّ قلبَ الزَّنزانة بشريطٍ يبلغ امتداده على الأقل ستِّين سنتيمتراً)؛ أمَّا في الزَّنزانة الحاليَّة، التي يُفترَض أنَّها باتِّجاه

جنوب ـ غرب/ غرب، فإنَّ الشَّمس تُرى قُرابة السَّاعة الثَّانية وتبقى في الزَّنزانة حتَّى وقتٍ متأخِّر، إنَّما بشريطٍ امتدادُه خمسةٌ وعشرون سنتيمتراً فحسب. في هذا الفصل، الأكثر حرّاً، قد يكون ذلك أفضل.

فضلاً عن ذلك: الزَّنزانة الحاليَّة تقع فوق ورشة الإصلاحِ الميكانيكيِّ للمعتقَل حيث يُسمَع ضجيجُ الآلات؛ ولكنَّني اعتدتُ ذلك.

الزَّنزانة فائقة البساطة وفائقة التَّعقيد في آنٍ معاً. لديَّ سريرٌ حائطيٌّ قابلٌ للطَّيِّ ومكوَّنٌ من فِراشَين (أحدهما من صوفٍ): تُستبدَل البياضاتُ كلَّ أسبوعين على وجه التَّقريب. ثمَّة طاولةٌ صغيرةٌ وشيءٌ ما من قبيل الصَّوان، ومرآةٌ، وطَسْتٌ كبيرٌ ودَلوٌ من حديدٍ مزخرف. أمتلك الكثير من الأشياء المصنوعة من الألمنيوم والتي يعود اقتناؤها إلى السَّريَّة العسكريَّة التي شُكِّلتْ في السِّجن إبَّان عصر النَّهضة. أمتلك كذلك بعض الكتب خاصَّتي؛ كلَّ أسبوعٍ أتسلَّمُ ثمانية كتبٍ للمطالعة من مكتبة السِّجن (اشتراكٌ مضاعفٌ). في الصَّباح أنهض عند السَّادسة والنِّصف، عند السَّابعة تدوِّي أبواقَ التَّنبيه: قهوة، مرحاض، تنظيف الزَّنزانة؛ أكرعُ نصف لترٍ من الحليب وأزدردُ قطعة خبزٍ صغيرة؛ قرابةَ الثَّامنة نخرجُ إلى الهواء الطَّلق لساعتين من الزَّمن. أتمشَّى، أدرس قواعد اللغة الألمانيَّة، أقرأ "الآنسة-الفلَّاحة" لبوشكين وأحفظ عن ظهر قلب حوالَي عشرين سطراً من النَّص. أبتاعُ صحيفةً تُعنى بالقضايا الصِّناعيَّة والتِّجاريَّة، وأطالع بعض الأخبار الاقتصاديَّة؛ الثُّلاثاء أبتاعُ مجلَّة "بريد الصِّغار"[1] من باب التَّسلية؛ الأربعاء

---

(1) IL Corriere dei Piccoli أوَّل مجلَّة أسبوعيَّةٍ للقصص المصوَّرة في إيطاليا، صدرت من 1908 إلى 1995، (م).

أسبوعيَّةَ "الأحد البريدي"[1]، والجمعة "غورِّينو المسكين"[2] المعروف بهزليَّته. بعد فترة التَّنفُّس، أحتسي القهوة؛ ثمَّ أتسلَّمُ ثلاث صحفٍ؛ الغداء يصلُ في أوقاتٍ متغايرةٍ جداًّ، من الثَّانية عشرة إلى الثَّالثة؛ أسخِّن الحساءَ (أمَرَقاً كان أم نشِفاً)، أتناول قطعةً صغيرةً من اللحم (هذا إن كان لحمَ عِجلٍ، ذلك أنَّني غير قادرٍ على أكل لحم البقر بعد)، مع كسرةِ خبزٍ، وقطعةِ جبنٍ صغيرة (لا أحبُّ الفاكهة) وربعَ كأسٍ من النَّبيذ. أقرأ كتاباً، أتمشَّى، أتفكَّرُ في كثيرٍ من الأمور. عند الرَّابعة، الرَّابعة والنِّصف، أتسلَّم صحيفتين جديدتين. عند السَّابعة أتعشَّى (العشاء يصلُ في السَّادسة): حساءٌ، بيضتان غير ناضجتين، ربع كأسٍ من النَّبيذ؛ لا أقدر على تناول الجبن. عند السَّابعة والنِّصف يعمُّ الصَّمت؛ أمضي إلى السَّرير وأطالع الكتب حتَّى الحادية عشرة-الثَّانية عشرة. منذ يومين، أشرب عند التَّاسعة فنجاناً من البابونج.

أعانقكِ.

أنطونيو

---

(1) Domenica del Corriere أسبوعيَّة شعبيَّة مشهورة في إيطاليا تأسَّست سنة 1899 في ميلانو، وتوقَّفت عن الصُّدور سنة 1989، (م).

(2) Il Guerrin Meschino عنوانٌ لعملٍ أدبيٍّ قريبٍ من فنِّ القصِّ الفروسيِّ، صدر في ثمانية كتب، من تأليف شاعر التروبادور الإيطالي أندريا دا بارْبِرِينو، وطُبع لأوَّل مرَّةٍ سنة 1473، (م)

الرّسالة L

شيءٌ من الحسد

عزيزتي جوليا،

تسلَّمتُ رسالتكِ. أمَّا الصُّور الفوتوغرافيَّة فلم تصلني بعد؛ آملُ أن تكون من بينها واحدةٌ لكِ. طبعاً أودُّ لو أراكِ مع الطِّفلين في صورةٍ واحدة، كما في صورةِ العامِ الفائت، ذلك أنَّه في الصُّورة الجماعيَّة ثمَّة شيءٌ من الحركة، من الدِّراماتيكيَّة، ثمَّة علاقاتٌ يمكن أن تستمرَّ ردحاً من الزَّمن، علاقاتٌ متخيَّلةٌ في مشاهد لطيفة، في مشاهد حياتيَّةٍ واقعيَّة عندما لا يكون ثمَّة هدفٌ للمصوِّر المصوِّب عدسَته. من جهةٍ أخرى أعتقد أنَّني عرفتك بما يكفي لكي أتخيَّل مشاهدَ أخرى، غير أنَّني عاجزٌ بعض الشَّيء عن تخيُّل أفعال وردودِ أفعال الطِّفلين في علاقتهما معك.

وعليه، فأنا أشعر بالحسد لأنَّني محرومٌ من الالتذاذ بالطَّراوة الأولى لتلك الانطباعات عن حياة الطِّفلين، ومن مساعدتِك في إرشادهما وتثقيفهما.

عزيزتي، أعانقكِ.

أنطونيو

الرّسالة LI

"البابيروسة"[1]

عزيزتي تانيا،

من الأمور التي أضحكتني كثيراً في بطاقتك البريديَّة المصوَّرة الأخيرة جزمُكِ أنَّك تعرفين أنَّني أعوِّلُ على تلقِّي التَّهنئات بمناسبة عيد القدِّيس الذي أحملُ اسمه. لا أعلم من أفشى لك هذا السِّرَّ الذي كنتُ شديدَ الحرص على إبقائه طيَّ الكتمان؛ لا بل مكتَّماً للغاية وسرِّيَّاً للغاية حدَّ أنَّني مُذْ بلغتُ السَّادسة لم أعرف حتَّى كيف أستمرُّ في صونه (فقط إلى سنِّ السَّادسة كنت أتلقَّى الهدايا بمناسبة عيد القدِّيس الذي أحملُ اسمه).

بيد أنَّني أريد أن أفضي إليكِ بسرٍّ آخر: لم أظفر أبداً وربَّما، واحسرتي، لن أظفر أبداً بإرضاء رغبتي بتناول خليطٍ مقليٍّ مِن كُلى ودماغ البابيروسة ووحيد القرن.

عزيزتي تانيا، في كلِّ الأحوال أشكركِ على تهنئتك، مع تنبيهٍ بسيطٍ إلى أنَّ القدِّيس أنطونيو الذي يحرسني ليس أنطونيو حُزيران، وإنَّما أنطونيو كانون الثَّاني، المرافق بالنَّوع الأوروبِّيِّ من البابيروسة. لسوء الحظِّ فإنَّ البابيروسة يعيش فقط في جُزرِ سوندا ومِن ثَمَّ فمن الصَّعب جدَّاً الحصول عليه، وخصوصاً على صورةِ دماغٍ وكُلىً طريَّة.

تانيا الغالية، أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

---

(1) حيوانٌ ثديي شبيه بالخنزير، يُسمَّى أيضاً "خنزير الغزلان"، يعيش في بعض جزر إندونيسيا، (م).

الرِّسالة LII

تسعُ ليراتٍ في الشَّهر

عزيزتي تانيا،

أقادُ مِن قِبَلِ نفسي منذ زمنٍ طويلٍ ولقد قدتُ نفسي بنفسي مُذ كنتُ طفلاً. لقد بدأت العملَ مُذ كان عمري إحدى عشرة سنة، بأجرٍ قدره تسع ليراتٍ في الشَّهر (ما يعني من منظورٍ آخر كيلو من الخبز يوميًّاً) لعشر ساعاتٍ من العمل، بما في ذلك صبيحة يوم الأحد التي كنتُ أمضيها في نقل سجلَّاتٍ تزنُ أكثر منِّي، وفي كثيرٍ من الليالي كنت أبكي بالسِّرِّ من آلامٍ تنخرُ جسدي برمَّته.

لم أعرف أبداً إلا الوجه الأكثر وحشيَّةً للحياة ولقد هزمتُها دائماً، بشكلٍ أو بآخر. حتَّى أمِّي نفسها لا تعرف كلَّ حياتي ولا النَّوائب التي مررتُ بها.

عزيزتي تانيا، أعانقكِ بمودَّةٍ فائقة.

أنطونيو

الرِّسالة LIII

بلا ذيلٍ

عزيزتي تانيا،

لم أكن في يومٍ من الأيَّام صحفيَّاً يبيع قلمَه لمِن يدفع أكثر ويكون لزاماً عليه أن يزيِّف باستمرار، لأنَّ الكذب جزءٌ من كفاءته المهنيَّة. لطالما كنتُ صحفيَّاً حرَّاً، أتمسَّك دائماً برأيٍ واحدٍ، ولم أضطرَّ يوماً إلى إخفاء قناعاتي إرضاءً لبعضِ السَّادة.

غريبٌ أن تطلبي منِّي تفسيراً حول أنَّ بعض الجماعات القوقازيَّة تؤمن بأنَّ اليهود يمتلكون ذيلاً. المسألة لا تعدو كونها نُكتةً حكاها لي يهوديٌّ كان مفوَّضاً سياسيَّاً تابعاً لإحدى فِرق الحملة العسكريَّة لقوقاز أورنبرغ إبَّان الحرب الرُّوسيَّة ـ البولانديَّة التي وقعت سنة 1920. هؤلاء القوقاز لم يعش بينهم يهوديٌّ واحدٌ ضمن حدود الأرض التَّابعة لهم وكانوا يكوِّنون تصوُّراتهم عن اليهود وفقاً للبروباغاندا الإكليروسيَّة على أنَّهم غيلانٌ قتلوا الله. هؤلاء كانوا يرفضون التَّسليم بأنَّ المفوَّض السِّياسيَّ يهوديٌّ: "أنتَ مِنَّا"، كانوا يقولون له، "لستَ يهوديَّاً؛ إنَّك مثخنٌ بندباتِ جراحٍ حفرتها الرِّماحُ البولانديَّة في جسدِك، قاتلْ معنا؛ اليهودُ شيءٌ آخر".

إنَّ مسألة الأعراق لا تهمُّني. وعلى هذا لا أرى قيمةً لإشارتكِ إلى أهميَّةِ الأضرحة من النَّاحية الحضاريَّة؛ هذا يصحُّ فقط بالنِّسبة

إلى الأزمنة القديمة وفقط عندما تكون الأضرحةُ الأنصابَ الوحيدة التي لم يدمِّرها الزَّمن وذلك أنَّه داخلَ الأضرحة، إلى جوار الميِّت، كانت توضع أغراضٌ استخدمها في حياته اليوميَّة. في جميع الأحوال فإنَّ هذه الأضرحة لا تعطينا إلا فكرةً محدودةً عن الأزمنة التي شُيِّدتْ إبَّانها.

أنا لا عِرق لي؛ أبي من أصولٍ ألبانيَّة، أمِّي ساردينيَّة من جهة الأب والأم، وساردينيا لم تتوحَّد مع بييمونتِه إلَّا سنة 1847، بعدما كانت إقطاعيَّةً شخصيَّة وميراثاً للأمراء البييمونتيِّين الذين حصلوا عليها باستبدالها بصِقِلْية التي كانت بعيدةً جداً وأقلَّ منعةً. مع ذلك فإنَّ ثقافتي في الأساس إيطاليَّةٌ؛ وذا هو عالمي؛ لم أعِ يوماً أنَّني ممزَّقٌ بين عالمين.

من جهةٍ أخرى لا أحد في ليغوريا يتملَّكه الخوف إذا ما أتى أحد البحَّارة إلى بلدته بزوجةٍ زنجيَّةٍ. لا يقتربون ليلمسوها بإصبعٍ مرطَّبٍ باللعاب ليروا إذا ما كان السَّوادُ سيتلاشى ولا يظنُّون أنَّ دِثارات الفُرش البيضاء ستنصبغ بالأسود.

أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

الرّسالة LIV

فازِلينٌ على فِيل

غاليتي جوليا،

تسلَّمتُ رسالتَيكِ. إنِّني أشعر بسكينةٍ أكبر مُذ استأنفتُ الكتابة إليكِ.

لقد أخبرتني تانيا، بمتعةٍ كبيرة، أنَّ دِليو فكَّرَ بدَهنِ فيلٍ بالفازِلين، لأنَّه على ما يبدو أحسَّ بأنَّ ملمسَ جلدِه خشنٌ تحت أصابعه؛ لا يبدو لي فائق الغرابة أن يفكِّر صبيٌّ بدَهن فيلٍ بالفازِلين، حتَّى وإن كنت لا أظنُّ أنَّ فكرةً مماثلةً كانت لتخطرَ على بالي لو كنتُ صبيًّا.

لقد حدَّثتني أيضاً أنَّ جوليانو يريد معرفة كلِّ ما يتعلَّق بي: أظنُّ أنَّ لذلك علاقةً برؤيته صورةً لي في أحد النَّوادي الثَّقافيَّة. غاليتي، إذ أفكِّر بكلِّ هذه الأشياء، وبحياتكم التي منذ سنين طويلة (سنين تكاد تعادلُ ربعَ وجودي وأكثر من ربع وجودِك) وهي تسير على هذا المنوال منسلخةً عن حياتي، فإنَّني لا أشعر بانشراحٍ كبير. لكن ينبغي أن نصمد، أن نسعى إلى اكتساب القوَّة. من جهةٍ أخرى، ذلك الذي حدث لم يكن خارجَ الحسبانِ تماماً؛ هل تذكرين، وأنتِ البارعة في استذكارِ الماضي، عندما قلت لكِ "إنِّي ماضٍ إلى الحرب"؟ لعلَّ ذلك لم يكن جدِّيّاً من جهتي آنذاك، ولكنَّه كان مُصيباً وهو ما كنت أحسُّ به في حقيقة الأمر. ولقد أحببتك، أحببتك كثيراً.

كوني قويَّةً وافعلي كلَّ شيءٍ لتكوني في حالٍ أفضل. أعانقكِ بحنانٍ مع فتَيَيْنا.

أنطونيو

الرّسالة LV

كما في حربٍ

تِرزِينا الغالية،

أسوأ البلايا في حياتي الرّاهنة هي الضّجر. على الأقل، الشّهور الثلاثة الأولى بعد الاعتقال كانت مفعمةً جدّاً بالحركة: التّأرجح بين حدّي شبه الجزيرة الأقصيَين، مع كلّ المكابدات الجسديّة التي رافقت ذلك، لم يكن ليدع لي وقتاً للضّجر. كان ثمّة على الدّوام مناظر جديدة جديرة بالمشاهدة، وكذا نماذج جديدة من الاستثناءات الفريدة الجديرة بالتّبويب: الحقّ أقول لكِ، كان يُخيَّل إليّ أنّني أعيش في قلب حكايةٍ خرافيّة.

أمّا الآن، ومُذْ أمدٍ يربو على العام، فإنّني ثابتٌ في ميلانو، في بطالةٍ قسريّة.

تشغلُ بالي كثيراً الحالةُ النّفسيّة لأمّي، وفي المقابل لا أدري ما عساي فاعلٌ لكي أطمئنها وأفرّجَ عنها. أريد أن أسكب فيها يقيناً راسخاً بأنّني مطمئنٌّ جدّاً، وهذا ما أنا عليه في الحقيقة، ولكنّني كما أرى عاجزٌ عن ذلك.

بالنّسبة إليها فإنّ اعتقالي مصيبةٌ مُريعةٌ وخفيّةٌ بعض الشّيء من جهة ترابطِ عللها ومعلولاتها؛ فيما أرى أنا الأمرَ على أنّه فصلٌ من فصول النّضال السّياسيّ الذي ابتدأت معركته وستستمرُّ ليس فقط في إيطاليا،

بل في كلِّ أصقاع العالَم، لزمنٍ لا يعرف أمدَه أحد. لقد أُسِرْتُ، كما لو خلالَ حربٍ من الوارد فيها أن يَسقط أسرى، وأنا مُدرِكٌ أنَّه أمرٌ محتمَلُ الوقوع مثلما أنا مدركٌ تماماً لاحتمال وقوعِ الأسوأ. لكن أخشى أنَّكِ ترين الأمرَ من منظورٍ أمِّنا.

تحيَّاتي الحارَّة للجميع. أعانقكم.

أنطونيو

الرِّسالة LVI

ريشة الكتابةِ الخادشة

عزيزتي تانيا،

هل أعدتِ إرسالَ صورةِ دِليو الفوتوغرافيَّة إلى أمِّي، مثلما وعدتني؟ إنَّك لَتصنعين خيراً جمَّاً إذ تفعلين: تلك المسكينة كابدت الكثير بسبب اعتقالي، ويقيني أنَّها تكابد أكثر ممَّا نتصوَّر من جهةٍ أنَّه من الصَّعب في بلادنا استيعابُ فكرةِ دخولِ امرئٍ السِّجنَ دون أن يكون لصَّاً، أو محتالاً، أو قاتلاً؛ إنَّها تعيش في حالةٍ من الرُّعب الدَّائم مُذِ اندلعتِ الحرب (ثلاثةٌ من أشقَّائي كانوا على الجبهة) ولديها لازمةٌ كانت تقولها ولا تزال: "أبنائي سيُذَبَّحون"، عبارةٌ هي أكثر ترويعاً من النَّاحية التَّعبيريَّة في اللغة السَّاردينيَّة منها في اللغة الإيطاليَّة: "fàghere a pezza"[1]. "Pezza" هي لحمُ العجلِ أو الخنزير المعروضُ للبيع، بينما بالنِّسبة إلى الإنسان فالمصطلح المستخدَم هو "carre"[2]. لا أدري كيف أفرِّج عنها.

تانيا الغالية، لا أستطيع الكتابة إليك؛ لقد أعطوني مرَّةً أخرى ريشةً تخدِّشُ الورقَ وتجبرني على بهلوانيَّاتٍ أصبعيَّة. أنتظرُ رسائلكِ. أعانقكِ.

أنطونيو

---

(1) باللغة السَّاردينيَّة في الأصل، ويمكن ترجمتها إلى العربيَّة "سيُقطَّعون أشلاءً"، (م).

(2) بالسَّاردينيَّة وتعني لحمَ الإنسان وجسده عموماً، تقابلها لفظة "carne" بالإيطاليَّة، (م).

الرِّسالة LVII

الميلادُ الخامس

أمِّي الغالية،

هو ذا عيد الميلاد الخامس الذي أمضيه مجرَّداً من حرِّيَّتي والرَّابع الذي أمضيه وأنا داخل السِّجن. الحقَّ أقولُ لكِ، إنَّ الوضعَ القسريَّ الذي أمضيتُ فيه ميلادَ 1926 في أوستيكا لَيُعَدُّ فردوساً من فراديس الحريَّة الشَّخصيَّة بالمقارنة مع وضعي كسجين. لكن لا تحسبي أنَّ سكينة روحي قد نقُصَتْ. لقد هرمتُ أربع سنين أُخَر، لم أعد أضحك بانشراحٍ كبيرٍ كما من قبل، لكنْ أعتقد أنَّني صرتُ أكثر حكمةً وأنَّني أثريتُ خبرتي بالبشر والأشياء.

من جهةٍ أخرى، لم أفقد لذَّتي بالحياة؛ لا تزال الأشياء، كلُّ الأشياء، تثير اهتمامي وأنا على يقينٍ من أنَّني ولئن كنت عاجزاً عن مضغِ الفولِ المشويِّ بصوتٍ طاحنٍ، إلَّا أنَّني لن أغتمَّ، برغمِ ذلك، من رؤية وسماعِ الآخرين يفعلون. لكنَّني لم أشِخْ بعد في خاتمة المطاف، ألا تظنِّين؟ نشيخُ فقط عندما نبدأ بخشية الموت وعندما نغتمُّ لرؤية الآخرين يفعلون ما نحن عاجزون عن فِعله.

بهذا المعنى لا شكَّ عندي من أنَّكِ أنتِ الأخرى لم تشيخي برغمِ سنِّك. أنا متيقِّنٌ من أنَّكِ عقدت العزمَ على العيش طويلاً لكي نتمكَّن من اللقاء كلُّنا معاً ولكي تتمكَّني من رؤية جميع أحفادِك: طالما لدينا

إرادةٌ بالحياة، وطالما نشعرُ بلذَّة العيش ولا نزال نتوق إلى بلوغِ هـدفٍ ما، فنحن قادرون على تحمُّل كلِّ الأسقام. لكن عليك أن تقتنعي بأنَّـه لِزامٌ على المرء أن يدَّخر شيئاً مـن قـواه وألَّـا يُـصِرَّ علـى بـذل جهـودٍ جَسِيْمَةٍ كما لو كان في عهد شبابه الأوَّل.

تهانيَّ للجميع وتحيَّاتي لكلِّ أفراد العائلة. أعانقك بحنان.

أنطونيو

الرِّسالة LVIII

خبزُ أمِّي

غاليتي تِرِزينا،

في يومِ الميلاد وصلني الطَّردُ المُرسَلُ منكِ. قولي لأمِّي إنَّ كلَّ شيءٍ كان في مكانه ولم يتلَفْ شيءٌ البتَّة؛ حتَّى الخبز كان لا يزال طازجاً وقد التهمته بالتذاذٍ كبير: كان مذاقُ الذُّرة السَّاردينيَّة الفائقة اللذَّة واضحاً على اللسان. ظنِّي أنِّي لم أذقه منذ خمس عشرة أو ستَّ عشرة سنة.

الأخبارُ عن حالة أمِّنا الصِّحِّيَّة أغمَّتني كثيراً. إنِّي على يقينٍ من أنَّكم ستتحلَّون بالصَّبر الفائق معها: إلَّم أكن مخطئاً، فإنَّها تستحقُّ أكثر من الصَّبر، ذلك أنَّها أمضت كلَّ حياتها تعمل لأجلنا، مضحِّيَةً على نحوٍ يتجاوز حدودَ التَّصوُّر؛ لو أنَّها كانت امرأةً أخرى، يعلم الله أيَّ منتهىً مُهلِكٍ كنَّا انتهينا إليه مُذ كنَّا أطفالاً؛ لعلَّ أحداً منَّا ما كان ليُقَيَّض له البقاء على قيد الحياة إلى اليوم. ألا تظنِّين؟

أعانقكِ بحبٍّ كبيرٍ مع أمِّي وكلِّ العائلة.

أنطونيو

الرِّسالة LIX

سَمَكٌ ضدَّ البعوض

أمِّي الغالية،

وصلتني رسالتكِ ولَشَدَّما ابتهجتُ إذ علمتُ أنَّكِ استعدتِ عافيتكِ وأنَّك ستذهبين، ليومٍ واحدٍ على الأقل، إلى حفلِ القدِّيس سِرافينو[1].

لَكَم كنت أحبُّ، وأنا في عهد اليفاعِ، وادي تيرسو تحتَ مقامِ القدِّيس سِرافينو! كنت أقضي ساعاتٍ وساعاتٍ جالساً على صخرةٍ أتأمَّلُ تلك البحيرة الغريبة التي يشكِّلها النَّهرُ أسفلَ الكنيسةِ بالضَّبط، من جرَّاء العائق الصَّغير المشيَّدِ عميقاً؛ وكذلك لأشاهدَ دَجاجَ الماء إذْ يخرجُ من بين القصب المحيطِ بالبحيرة ليسبح إلى وسطِ الماء، وقفزاتِ السَّمَكِ إذْ يتصيَّدُ البعوض.

ربَّما تغيَّرَ كلُّ ذلك الآن، في حال شرعوا بتشييدِ السَّدِّ المقترَحِ لتجميعِ مياه نهر فلومِيندُّو[2]. لا أزال أذكر حين رأيت ذات مرَّةٍ أفعى كبيرة تلجُ الماءَ ثمَّ لا تلبث أن تخرج وفي فمها أنقليسٌ كبيرٌ، وكيف

---

(1) راهبٌ إيطاليٌّ من مواليد مونتِغرانارو سنة 1540، توفِّي في أسكولي سنة 1604. أعلنته الكنيسة الكاثوليكيَّة قدِّيساً، وجعلت يوم 12 تشرين الأوَّل، الموافق ليوم وفاته، من كلِّ عامٍ يوم احتفالٍ بذكراه، (م).

(2) نهرٌ في ساردينيا يُعرَف أيضاً بنهر "ريو سان جيرولامو"، (م).

قتلتُ الأفعى وحملتُ معي الأنقليس الذي اضطررت بعدئـذٍ إلى رميـه لأنّني لم أجد الوسيلة لحملِه؛ كما أنّـه تـصلَّبَ مثـلَ عـصاً وانطبعـت رائحته الكريهة على يديَّ.

عناقاتي للجميع، وخصوصاً للأطفـال ولـكِ أنـتِ، أمّـي الغاليـة، وبأكبر قدرٍ ممكنٍ من الحنان.

أنطونيو

الرّسالة LX

فردوسُ الأمِّ

أمّي الغالية،

تسلّمتُ رسالتك التي كتبتِها لي بيدِ تِرزِبنا.

أرى أنَّ عليكِ أن تكتبي إليَّ في كثيرٍ من الأحيان بهذه الطَّريقة: فلقد شعرتُ في هذه الرِّسالةِ بروحِكِ وبأسلوبك في التَّفكير؛ لقد كانت حقّاً رسالةً منكِ لا مِن تِرزِينا.

أتعلمين أيَّ ذكرى عادت إلى خلدي؟ تتجلّى الآن في ذاكرتي بلِياحٍ تامٍّ ذكرى السَّنة الأولى أو الثّانية من المرحلة الابتدائيَّة حين كنتِ تصوِّبين لي واجباتي: أذكر تماماً أنّني لم أفلِح أبداً بتذكُّر أنَّ كلمة طائر "uccello" تُكتب بحرفَي "c"، وهذا الخطأ صحَّحتِه لي أكثر من عشر مرّات.

فإذا كنتِ، في خاتمة المطاف، مَن علَّمنا الكتابة (وكنتِ مِن قبلُ علَّمتِنا الكثير من الشِّعر الذي كنتِ تحفظينه غيباً؛ لا أزال أذكرُ راتابلان[1] وهذه الأخرى: "على طولِ ضفافِ نهرِ اللوار، ـ الذي يجري مثل وشاحٍ فضِّيٍّ ـ كما لو نحو اللانهائيِّ ـ ثمَّة أرضٌ بهيَّةٌ مغبوطة"[2])، فمن العدلِ أن تخدمك يدُ أحدِنا في الكتابة عندما لا تقوين كفايةً على

(1) الاسم المستعار للشّاعر الإيطالي أنتونيو نِغري، (م).

(2) مقطعٌ من "أغنية اللوار" لأرنالدو فوزيناتو، (م).

فِعل ذلك. إنَّ ذكرى راتابلان وأغنيـة اللـوار خليقـةٌ لوحـدِها بجعلـكِ تبتسمين. غير أنَّني أذكرُ أيـضاً كـم كنـتُ أفـتَنُ (لا بـدَّ أنَّـني كنتُ في الرَّابعة أو الخامسة) بمهارتكِ في تقليدِ نقرِ الطَّبـلِ علـى الطَّاولـة فيمـا أنتِ تُنشدين راتابلان استظهاراً. عدا عن ذلك لا يمكنـك أن تتـصوَّري كم ذكرى تعودُ إلى خلدي وأنتِ تشرقين فيها مثلَ قوَّةٍ رحيمةٍ وطافحـةٍ بالحنان لأجلنا.

وإذا تفكَّرتِ في الأمر جيِّداً، فـإنَّ كـلَّ المـسائل المتَّـصلة بـالرُّوح وبخلودِ الرُّوح وبالجنَّة والجحيم ليست في نهاية الأمر سوى شكلٍ مـن أشكال تأويل هذا النَّاموسِ البسيط: أنَّ كلَّ فِعلٍ مـن أفعالنـا ينتقـل إلى الآخرين بمقتضى ما يحمله من قيمِ الخـير أو الـشَّر، مـن أبٍ إلى ابـنٍ ومن جيلٍ إلى جيلٍ وفق حركةٍ متواصلة. وبما أنَّ ذكرياتنا عنكِ مفعمـةٌ بمجملِها طيبةً وقوَّةً وحيث إنَّك وهبـتِ قـواكِ في سـبيلِ الإعـلاء مـن شأننا، فذلك يعني أنَّكِ دخلتِ سلفاً ومنذ ذلك الزَّمن الجنَّـةَ الوحيـدةَ الموجودة، والتي هي - بالنِّسبة إلى أمٍّ ـ قلوبُ أبنائها كما أظنُّ.

أعانقكِ بحنانٍ وكلَّ أفراد العائلة.

أنطونيو

الكتاب الثَّاني

رسائل جديدة

[فيينّا] 16 نيسان، 1924

عزيزتي جوليا،

تسلّمتُ رسالتكِ المؤرَّخة بالثّامن من الشَّهر، والتي قشعت كلَّ الغيوم وكلَّ الالتباسات. علينا ألّا نتكلّم بعد الآن عن "السَّقام" ولا عن أيَّة حماقةٍ أخرى مشابهة. علينا فقط أن نحبَّ بعضنا ونتحلّى بالصَّبر، وأن نرتقبَ اللُقيانَ مِن جديدٍ ونسعى لإيجادِ طريقةٍ تمكّننا من البقاء معاً أطولَ أمدٍ ممكنٍ. ذلك هو السَّبب الوحيد لكلِّ خللٍ في علاقتنا، وهو ما يغرينا بالإيغال أكثر، أقصد بتمزيق نفسينا سُدىً، بحثاً عن أسبابٍ باطنيَّة. حتماً لَن أسمح لنفسي بعد اليوم بالخوض في هذه اللعبةِ الوحشيَّة. إنَّني مطمئنُّ البال، واثقٌ، لم تعد عندي شكوكٌ، ما مِن قطرةِ صُهارةٍ معدنيَّةٍ واحدةٍ تهدِّد لحمي الرَّقيق. لن يكون من اليسير التَّصبُّر، لكنْ حاصلُ القولِ أنَّني لن أبتدعَ بعد اليوم غيبيَّاتٍ عن قلَّة الصَّبر. وأنتِ أيضاً ينبغي أن تفعلي مثلي، وألا ترهقي نفسَك بالرَّكض وراء الألعوبات. أقرُّ بأنَّ الذَّنبَ، في جزئه الأكبر، يقعُ عليَّ، ذلك أنَّني في نهاية الأمر أكبر عمراً وأكثر خبرةً: كان عليَّ ألّا أكتب إليك الرِّسالة التي كتبتها مِن قبلُ، لأنَّني إذ أتمعَّن في الأمر الآن، أجد أنَّني لم أكن مؤمناً كثيراً في ما كنت أكتبه وأؤوِّله في كلماتٍ مِن قبيلِ سوء أحوال أعصابي والخنافس التي تتمشّى في دماغي.

ما أقصر الأمدَ الذي قضيناه معاً! وحتّى ذلك القِصَر، كنّا نختلسه اختلاساً في نهاية الأمر: كانت سعادتنا سلعةً مهرَّبةً يوماً بِيوم، نلتذُّ بها في كوخٍ خبيءٍ داخلَ غابة. ولقد ترك ذلك حسرةً كبيرةً في كلِّ جزءٍ

من كياننا، وأورثنا ارتجاجاتٍ هائلةٍ لم تكفَّ يوماً عن تهييجِ أشواقنا. تلك هي علّة الخلل العابر في علاقتنا. مُجمَلُ القولِ أنّنا لم نملك الوقت الكافي لكي نشعرَ بأنّنا زوجٌ وزوجة: لم نكن يوماً إلّا عاشقَين في شهر عسلٍ (أتذكرين مقترَحي حولَ القانون الأساسي للحزب؟). إنّني لا أستطيع التّفكير، دون أن تعتريني عاطفةٌ عميقةٌ، في ذلك العهد الذي نفحَنا السّعادةَ ووحّدنا معنويّاً وفكريّاً. أتذكرين شكوككِ آنذاك؟ كنتِ محقّةً، وكنتُ أشعر بذلك: ولكنّني كنت محقّاً أكثر منكِ. تُرى، لو أنّني رحلتُ قبل أن تنصهرَ حياتانا معاً، وقبلِ أن يهزَّ فرحُ أنْ يكون أحدُنا للآخر كيانَنا بقوّةٍ أكبر، هل كنّا لنتخطّى هذه الأزمة التي استحالتْ، مِن ثَمَّ، طفيفةً هكذا؟ لا أعرف. لقد تغيَّرتُ كثيراً حدَّ أنّني غير قادرٍ على تصوُّر ما كان من الممكن أن يكون، لكنْ ظنّي أنّ لا شيء طَيّبَ كان ليحدُث. لَكانت قصّتُنا، ولَبَدَت لنا أكثر مع البُعدِ، قصّةً صغيرةً، طبقَ مهلبيَّةٍ في ساحةِ ماتيلدِه سِراو. هكذا تبدو لي قصّتنا، على الأقل، حتّى عندما تنجح في إعادة بناء حيثيّاتِها وفق افتراضاتٍ سخيفةٍ ومستحيلة.

أمّا اليوم فإنّني أفكّر هكذا:- إذا كان عليَّ أن أبقى بعدُ ولأمدٍ طويلٍ، وفق افتراضٍ خاسرٍ آخر، بعيداً عن جوليا، فما الذي من الممكن أن يحدث؟ يقيناً لَكنتُ تلفتُ جُملةً: التّفكير بحيواتٍ أُخَر تسيرُ بعيداً عنّي هو شيءٌ لا يكفُّ عن الإلحاحِ عليَّ، ولكنّني لا أقنطُ ولا أضعفُ بسبب ذلك. بل أرتقبُ مجيءِ اليومِ الذي يلتئمُ فيه شملُنا، ونعودُ فيه طفلَين نمدُّ لسانَينا تهكُّماً، والزّمن الذي مضى يمّحي في رمشةِ عينٍ من الذّاكرة. هذا ما أفكّر فيه اليومَ، لأنّني متيقّنٌ، فوق ذلك، من أنّني سأراكِ قريباً، وسأحضنك من جديدٍ بين ذراعيَّ، كيما أقبّلَ عينيكِ، ومعصميكِ، وعنقَكِ، كيما أقبّلكِ كلَّكِ، بكلِّ أجيج عواطفي، كمثلِ طفلٍ نَهِمٍ. ذلك أنّني أحبُّكِ حبّاً فائق الحدِّ،

وأفهم جيِّداً كيف يمكن للعباراتِ التي أصبحت تبدو مبتذلَةً، لكثرة ما استخدمَها النَّاسُ، أن تحملَ معانيَ صادقةً. كلُّ شيءٍ يتجدَّد، لأنَّ حبَّنا حدَثٌ متجدِّدٌ ولأنَّنا فائقا التَّفرُّدِ في صوغِ حبِّنا كما نشتهي، حتَّى وإن تعذَّبنا قليلاً، في بعض الأحايين.

يبدو، هذه المرَّة بالذَّات، أنَّ القدرَ القاسي شاءَ أن أُنتخَبَ عضواً في... فينيسيا. لذلك فإنَّني ذاهبٌ إلى إيطاليا لبضعة أيَّامٍ، ولكنَّني سأعود بعد ذلك لأستشرسَ في سبيل الهيئة المستقلَّة. لقد سارت الانتخابات على خير ما يرام بالنِّسبة إلينا. الأنباء التي بلغت الحزبَ مِن سائرِ الأماكن فاقت التَّصوُّر: حصلنا رسميَّاً على 304.000 صوتاً، لكنَّنا في الحقيقة حصلنا على أكثر من ضعف ذلك العدد إذْ فكَّرَ الفاشيُّون في عزوِ تلك الأصوات إليهم، ماحين بالممحاة الرَّمزَ الشُّيوعيَّ وراسمين مكانه رمزاً فاشيَّاً. حين أفكِّر في الثَّمن الذي دفعه العمَّال والفلَّاحون من أجل منح أصواتهم لي، وحين أفكِّر أنَّ 3.000 عاملٍ في تورينو دوَّنوا اسمي تحت سلطةِ الهراوات، وأنَّ 3.000 آخرين في فِنِتو، أغلبهم من الفلَّاحين، فعلوا الشَّيء نفسَه، وما أكثر الذين أدمتهم الهراواتُ في سبيل ذلك، فإنَّني لأوَّل مرَّةٍ أدرك أنَّه يمكن لعضوٍ في الحزب أن يكون على هذا القدر من القيمة وأن يمثِّل دلالةً رمزيَّةً بالنِّسبة إليهم. بغضِّ النَّظر فإنَّني أعتقد أنَّ لعبَ دورِ النَّائب الثَّوري في مجلسِ نوَّاب حيث يتنابحُ دون انقطاعٍ أربعمائة قردٍ سكرانٍ لَهو أمرٌ يتطلَّب صوتاً وقوَّة احتمالِ جسديَّةً تفوق ما أملك. ولكنَّني سأحاولُ أن أفعلَ أفضلَ ما عنديَ: لقد انتُخبَ عددٌ من العمَّال الأقوياء العود والمفعمين همَّةً ونشاطاً والذين أعرفهم جيِّداً وأعوِّل عليهم لأجل القيام بعملٍ ما لا يكون عديم الجدوى تماماً. لَسوف يتلوَّى بعضُ الفاشيِّين من معارفي غضباً أكثرَ من مرَّة. لكنَّنا

سنتحدَّث عن هذا وجهاً لوجه، إذ سيكون لدينا ما يكفي من الوقت لذلك إذا سلَّمنا بأنَّ مجلس النُّواب سيُفتَتَح في الرَّابع والعشرين من أيَّار ولن أكون قادراً على حضور الاجتماعات الأولى لأنَّني سأكون بجوارِكِ لأمدَّ لكِ لساني، بانتظار أن أمدَّه لـ... موسوليني.

أقبِّلُكِ، أيَّتها الطَّيِّبة، والرَّائعة، يا حبيبتي، وأثيرتي[1].

أ.غ[2]

أريد أن أرسل إليكِ الكتاب[3] بالبريد، لكنَّني غير واثق من إمكانيَّة وصوله. سأحاول أن أرسل إليكِ مجموعةً من مجلَّات الأطفال التي أرسلوها إليَّ نظيرَ أعدادٍ من مجلَّة "النِّظام الجديد"، والتي لا يمكن في أيَّة حال أن تقارَن بالمجلَّة التي أسَّسها **فامبا** وهي المجلَّة التي يبدو لي أنَّك اطَّلعتِ عليها في إيطاليا: "صحيفةُ الأحد للفتيان".

هل سيكون من الممكن، حين آتي إلى موسكو، أن نقضي بعض الأيام معاً في الرِّيف؟ سنقرأ كتابَ باسكارلَّا كلَّه وسنقترف كومةً من الأفعال الجنونيَّة، أليس كذلك؟ عليكِ أن تضحكي كثيراً، لكي تنسي كلَّ تلك الأوقات البشعة التي كنَّا فيها بعيدَين عن بعضنا. أفكِّر في الأشياء التي يمكن أن أجلبها لك من إيطاليا: لا أستطيع أن أحسمَ أمري بعد، سأنظر في بعض المنتجات المحلِّيَّة الخاصَّة. أقبِّلك مرَّةً أخرى على عينيكِ الطَّيِّبتين والعذبتين، غاليتي جوليا.

أ.غ

---

(1) يخاطبها هنا بالرُّوسيَّة، (م).

(2) يرفق غرامشي لزوجته مع هذه الرِّسالة مقالين للبروفسور ألاليونا، كما ينسخ لها مقطعين من شعر تْشِزاره باسكارلا (1858 ـ 1940)، (م).

(3) يقصد كتاب أشعار لباسكارلا، (م).

24 أيلول، 1928

عزيزتي تانيا،

تسلَّمتُ رسالتيكِ المؤرَّختين في الخامس عشر و السَّابع عشر من أيلول. لقد كنت جزِعاً بعض الشَّيء لأنَّ شيئاً من أخبارِكِ لم يصلني منذ الثَّالث من أيلول، ولم أستطع تفسير ذلك: لقد ألمحتِ لي مِن قبلُ إلى أنَّ ظروفك الصِّحِّيَّة ليست على خير ما يُرام وخشيت أنَّك غير قادرة حتَّى على الكتابة إليَّ.

أعتقد أنَّ رسالتي الأخيرة، التراجيديَّة... بعض الشَّيء، لم تؤثِّر فيكِ كثيراً. مع ذلك عليكِ أن تأخذي الأمر على محملِ الجد. يبدو لي أنَّك غير مستعدَّة بعدُ للقيام بذلك؛ فعلامَ كلُّ هذا العِناد؟ على سبيل الذِّكر، أبلغتني أنَّكِ سترسلين إليَّ نقوداً. من غير المجدي إرسالُها. ما يرسله إليَّ كارلو يفوق حاجتي. ههنا لا ينفق المرءُ إلا قليلاً: فضلاً عن ذلك فأنا لا أعرف حتَّى ماذا أبتاع، ذلك أنَّ الأشياء المعروضة للبيع محدودةُ الأصناف. لم أصف لكِ من قبلُ تصاريفَ حياتي هنا؛ حياةٍ ليست في غاية الإشراق، ولا يمكنها أن تستثيرَ تصوُّراتٍ ملوَّنة. فيما يتعلَّق بالشقِّ المادِّيِّ، فلقد تكيَّفت معه تماماً. تتألَّف الوجبة من: 300غ من الخبز، 700غ من الحليب، حوالي 200غ من المكرونة بالزُّبدة وبيضتين نيئتين. إنَّها وجبةٌ كالتي تقدَّم في المستشفيات، وقد أعطيت لي لأنَّني لا أستطيع تناول اللحوم، ولا الحساء المعمول بالطَّماطم. كلَّ يومٍ أبتاعُ زيادةً على ذلك 50غ من السُّكَّر و50غ من الزُّبدة وأضفت إلى ذلك منذ أمدٍ قصيرٍ كيلو غرامٍ

واحداً من العنب. يبدو أنَّه يمكن ابتياع تلك الكمِّيَّة من العنب يوميًّاً على مدار الموسم: أتناول العنب والنَّزر القليل من الخبز، قرابة 120غ في اليوم، قِسْماً مع الحليب وآخر مع الزُّبدة مساءً. لكن حتَّى هذا الطَّعام الخفيف جدّاً أعجزُ عن هضمه بصورةٍ جيِّدة. المأساة كلُّها تتعلَّق بالنَّوم. أنام قليلاً جدّاً وأشعرُ على الدَّوام بوهنٍ عامٍّ. لقد حسَّن السِّيدوبرول من حالتي، ولكنَّه سرعان ما نفِدَ. كلُّ أوجاعي وقفٌ على الأحماض البوليَّة، وفقاً لتشخيص الطَّبيب الذي زارني في روما قبلَ المغادرة. أتظنِّين من الممكن إيجاد علاجٍ شاملٍ ضدَّ مرض فرط وجود حامضِ اليوريك في الدَّم؟ أظنُّني سأعود، مع أوَّل موجاتِ البرد، إلى حُقَنِ البيوبلاستين التي حسَّنت من حالتي في الماضي إلى حدٍّ معقول.

لم تكتبي إليَّ شيئاً عن الوثائق المقدَّمة للمدَّعي العام لأجل منحي حقَّ الكتابة في الزَّنزانة. كذلك كارلو لم يكتب إليَّ شيئاً عن الأمر. ما الإجراءات التي قمتما بها حقيقةً؟ كنت أظنُّ أنَّ تقديم الوثائق من قبلِ شخصٍ من خارجِ العائلة من شأنه أن يسرِّع الإجراءات. أمَّا الآن، ولأنَّ خبراً واحداً من قِبلكما لم يصلني، أجدني متردِّداً في الشُّروع بالإجراءات بنفسي، درءاً لتراكم الوثائق فوق بعضها، الأمر الذي من شأنه أن يصدم العقليَّة البيروقراطيَّة.

كذلك لم تكتبي إليَّ شيئاً عن المنشورات الدَّوريَّة التي من المفترض أن أتسلَّمها من **مكتبة سبِرْلينغ**. لقد غادرت روما منذ شهرين ونصف: كان ينبغي تغيير العنوان على الفور. لماذا لم يحصل ذلك؟ إلى أين تُرسَلُ المجلَّات بعد مغادرتك روما؟ ولماذا لا تصل إلى توري؟ أرجوكِ أن توضِّحي لي هذه المسألة التي تستحوذ على فكري أكثر من أيَّة مسألةٍ أخرى، وأن ترتِّبي لي أمرَ حصولي المنتظم على

المنشورات التي اشتركتُ بها. في نفس الوقت ثمَّة فوضى عارمة: إغفالُ أعدادٍ، وهلمَّ جرّاً، هلمَّ جرّاً. كنت أحسب أنَّ الخدمة تسير على أحسن ما يُرام في ميلانو وأنَّني سأتمكَّن من الحصول على المجلَّات فورَ صدورِها، برغم التَّضييق المضاعَف من قبلِ المحكمة الخاصَّة وإدارة السِّجن. أرجوكِ حقّاً أن تكرِّسي نفسكِ لحسمِ هذه المسألة قبل أيِّ أمرٍ آخر؛ فهي بالنِّسبة إليَّ مسألةٌ جوهريَّة. ضعيني على الدَّوام في صورة وضعك الصِّحِّي؛ ولا تكترثي كثيراً لوضعي الذي سيستمرُّ بالتَّدهور كما في السَّابق. المهمُّ هو أنَّني لست مضطرّاً للسَّفر مرَّةً أخرى ولا للنُّهوض بأعباء إضافيَّة من شأنها أن تزيدني وهناً على وهن. اكتبي إليَّ مراراً، أو على الأقل بانتظامٍ. كلُّ خبرٍ جديدٍ يدفعني إلى التَّفكير بأحداثٍ غير اعتياديَّة، بالأسقام، وهلمَّ جرّاً. أمَّا أنا فلا أستطيع الكتابة إليك إلا مرَّةً في الشَّهر. لم أتسلَّم الطُّرود من روما بعد. في رأيي، لقد أخطأتِ بعدم إرسالها بنفسِك. فلنأمل خيراً. كذلك لم أتسلَّم رسائل من كارلو منذ أمدٍ بعيدٍ. حسبي هذا. أرتقبُ رسائلك. أعانقكِ.

أنطونيو

20 تشرين الأوَّل، 1928

عزيزتي تانيا،

أتوقِعِين بيَ القِصاصَ على رسالتي الآثمة تلك؟ في شهرٍ واحدٍ لم تكتبي إليَّ سوى مرَّتين: في الخامس والسَّادس من تشرين الأوَّل. لقد سُرِرت غاية السُّرور، بل لقد انشرح صدري، بصورةِ الطِّفلين وصورة جوليا وكذا بصورتِك. لكن لماذا وكيف انقلبتِ شرِّيرةً هكذا؟ كيف سوَّلت لكِ نفسُكِ أن تكتبي وأن تفكِّري في أنَّ حصولي على صورةٍ لكِ لن يبعث الفرحَ في نفسي وفي أنَّني سأعيدها إليكِ؟ حقَّاً، العالَم شاسعٌ ومهولٌ وممعنٌ في الإبهام، لا سيَّما لمن هو في السِّجن. تكتبين إليَّ مرَّةً في الشَّهر وفوق ذلك تكتبين بهذه الطَّريقة الخبيثة! صحيحٌ أنَّني منذ سنتين إلى اليوم وأنا أغدقُ عليكِ ما لا حصر له من مباعث السَّأم والغمِّ وفوق ذلك أجرؤ على توبيخك، إلَّا أنَّك ستبدين لي، برغم كلِّ شيءٍ، ساذجةً قليلاً إذا أنتِ لم تفهمي أنَّ حالتي هي ما يفرض هذه الحتميَّةَ عليَّ. إنَّ ما يحزُّ في نفسي أكثر من أيِّ شيءٍ آخر هو أنَّني في هاتين السَّنتين فقدتُ كلَّ ما أملك تقريباً من رقَّة الشُّعور وأنَّ تيقّني من أنِّي غير مفهوم، تحت القيود التي أنا مرغمٌ على الكتابة في ظلِّها، لا ينفكُّ يقصيني أبعدَ فأبعدَ نحو الحضيض في حالةٍ من اللامبالاة السَّلبيَّة والطُّوباويَّة التي أعجز عن التَّحرُّر منها. لهذا، على سبيل المثال، كففت عن طلب صُور الطِّفلين الفوتوغرافيَّة في رسائلي، مع أنَّ هذا الهاجس يلحُّ ويستحوذ دائماً على فِكري. إنَّ عدم تسلُّمي لها يجعلني أتألَّم على نحوٍ قاسٍ، غير أنَّني لم أعد قادراً

على الكتابة عن ذلك ولقد تركت نفسي تنقادُ مع تيَّار مشاعري، دون حتَّى أن أحاول الاستشراس لصدِّه. أرغب أن أشرح لجوليا ولكِ الحالة الرُّوحيَّة العامَّة التي وصلت إليها بعد عامين من الحبس، لكن ربَّما لم يحن الوقت المناسب بعد. يبدو لي أنَّني قادرٌ، في هذه اللحظة، على التَّأكيد على هذه النقطة وحسب: أنَّني أشعر بأنِّي مجرَّدُ ناجٍ، في جميع المعاني المحتملة للكلمة. لأجلِ فهمٍ أفضل، يلزمُ أن أستنجدَ بمقايسةٍ معقَّدة بعض الشَّيء: يُقال إنَّ البحر يبقى على الدَّوام ساكناً بعد عمقٍ يتجاوزُ الثَّلاثين متراً، وبما أنَّني غصتُ إلى عمق عشرين متراً على الأقل، فذلك يعني أنَّني غارقٌ في تلك الطَّبقة التي لا تتحرَّك إلَّا عندما تثورُ أنواءٌ في تناغمٍ محقَّق، وبما يفوق بكثيرٍ الحدَّ المألوف. لكنَّني لا أنفكُّ أشعرُ بأنَّني أغوص أعمق فأعمق، وعلى نحوٍ مستنيرٍ أرى اللحظة التي سأبلغ فيها، عندَ خطوطٍ غير محسوسة، منسوبَ السُّكونيَّة المطلقة، حيث لا يُحَسُّ حتَّى بأعتى العواصف، وحيث لن يكون في الإمكان بعدئذٍ رؤية الطَّبقات العليا في تلك اللجَّةِ البحتة المدبَّجة بالزَّبد. والأسوأ من ذلك هو إحساسي بأنِّي سقطتُ في غَشيةٍ، وهي الحالة التي يُفترَض أنَّها خاصَّةُ السُّجناء القدامى، أولئك الذين كفُّوا عن استقراء العلاقاتِ الواقعيَّة، واحتكموا إلى الحدسِ الذي يحمل طابع السِّحر أو الرُّوحانيَّة. عندما وصلت الصُّور الفوتوغرافيَّة، نزلتُ لأوقِّع على سجلِّ الاستلام وعندي يقينٌ مطلَقٌ بأنَّ الأمر متعلِّقٌ بالصُّور. ما من عاملٍ مسبَّقٍ استطاع أن يوحي إليَّ بهذه الفكرة، بل وعدا عن ذلك، بما أنَّك كتبتِ إليَّ تقولين إنَّكِ أرسلت إليَّ نقوداً، كان من الممكن ببساطةٍ أن أتصوَّر أنَّ الأمر يتعلَّق بوصولها. كذلك، قبل أن تصلني الأشياء التي أرسلتها إليَّ من روما (الحقيبة ورُزمة الكتب)، خيِّل إليَّ على نحوٍ إشراقيٍّ أنَّك أرسلتِ إليَّ صندوقاً محدَّداً من الخشب. لم يكن لذلك الصُّندوق أيُّ سمةٍ

خاصَّة، وكنت قد نسيت أمرَه كليَّاً، أو على الأقل لم يكن ثمَّة باعثٌ من شأنه أن يغريني بالتَّفكير به. ولقد كان هو الصُّندوق نفسُه حقَّاً. هذه الحادثة أذهلتني ولا تنفكُّ تذهلني إلى اليوم أكثرَ بعدُ من حادثة الصُّور.

حسبي هذا. ربَّما أحاولُ في رسالةٍ أخرى أن أفسِّر ما أريد قولَه بصورةٍ أفضل. من جهةٍ أخرى، لا تظنِّي (ولا تظنَّنَّ جوليا أيضاً) أنِّي تبلَّدتُ ذهنيَّاً. لربَّما شوَّشتني قلَّة النَّومِ قليلاً وأفضت بي إلى هذه الهلاساتِ النَّفسيَّة.

إذن، لقد تسلَّمتُ الأشياء التي أرسلتِها إليَّ من روما وأشكرك على ذلك؛ وباتت تصلني اليوم من **المكتبة** المجلَّات التي اشتركت بها. لا أعلم لماذا لا تصلني مجلَّة "النَّقد الفاشي" التي اشتركتُ بها في ميلانو كيما تصلني أعدادُها حتَّى نهاية شباط: كتبتْ إليَّ **المكتبة** في حزيران، حين كنت في روما، أنَّه تمَّ اتِّخاذ التَّدابير اللازمة، بيد أنَّني لم أرَ أيَّ عاقبةٍ لذلك.

إلَّمْ يكن في الأمر إزعاجٌ لكِ هلَّا كتبتِ إلى كارلو تخبرينه أنِّي تسلَّمتُ رسالته وأن يصنع لي في المنزل بعض الجوارب الفائقة المتانة، ذلك أنَّ أحذية السِّجن أهرأتْ ذخيرتي منها.

خلا ذلك لا أحتاجُ شيئاً. عزيزتي تانيا، لا تكوني شرِّيرةً، اكتبي إليَّ بتواترٍ أكبر واكتبي إلى جوليا لتصفي لها غبطتي برؤية صورتها وصورة الطِّفلين. أعانقكِ بحنان.

أنطونيو

3 تشرين الثّاني، 1928

عزيزتي تانيا،

تسلّمتُ رسالتيكِ ورسالتَي جوليا. في المرّة القادمة سأكتب رسالةً شاملةً لجوليا. لقد كتبتُ لكي يرسل إليكِ كارلو الأخبار التي طلبتِها عن الوثائق. لا أعلم ماذا ستفعلين ولا بأيّة طريقة. في جميع الأحوال أخطري الشّخصَ الذي سيضطلعُ بوثائقي (وثائقي بمعنى أنّها تهمُّني أنا، لا بمعنى أنّها مصوغةٌ من قِبلي، بل من قِبل عائلتي) أن يخبرهم بأنّي مستعدٌّ لإنشاء طاولة الكتابة اللازمة على حسابي، بحيث لا تترتّب على إدارة السِّجن أيّة نفقة.

لا تكترثي لأمر النقود؛ فلديَّ وفرةٌ منها، قرابة الألفِ ليرة، في كُتيِّبٍ صغير؛ ومن ثمَّ فإنّني مطمئنٌّ كليًّا حيال أيِّ طارئٍ قد يقع.

أرسلي إليَّ أيضاً الكتاب الرُّباعيَّ اللغات، ذلك الذي كتبتِ إليَّ عنه؛ سيكون ذا نفعٍ عظيمٍ لي.

يؤسفني جدّاً ما ينالُكِ مِن نصَبٍ في عملِك. لا أريد أن أضاعفَه عليكِ بالْتِماسي منكِ أن تكتبي إليَّ مِراراً رسائل مُسهَبة. حسبي أن تكتبي إليَّ بانتظامٍ، حتّى ولئن اقتصر الأمرُ على بطاقاتٍ بريديّةٍ بسيطةٍ مصوَّرة. إنَّ بقائي طويلاً من دون أنباء يجعلني عصبيًّا ومنشغلَ البال.

ما وصلني من روما كان في الحقيقة صندوقاً صغيراً من الكتب، لا مجرَّد رزمةٍ عاديّة: لقد أخطأتُ التَّعبير. لم أستطع الحصول عليها بعد، ذلك أنَّ لديَّ الكثير من الكتب الأخرى على قائمة القراءة،

فضلاً عن أنَّه من غير المسموح لي أن أحظى بأكثر من عددٍ محدَّدٍ من الكتب داخل الزَّنزانة. لا أعلم ما هي الكتب الجديدة التي قلتِ لي إنَّها مبعوثةٌ من ميلانو: أهي الكتب الصَّادرة عن دار سلافيا[1] للنَّشر؟ لقد تسلَّمتُها. بالمناسبة: أرسلي إليَّ الجزأين الخامس والسَّادس من "الحرب والسَّلام" حال صدورهما. وماذا عن كتبي التي تركتُها في عهدةِ المحامي آريس؟ لم أعلَم شيئاً عنها حتَّى السَّاعة. حبَّذا لو أُبَلَّغْ بشيءٍ عنها، لا لأنَّها تلزمني على وجه السُّرعة: بل على العكس، لربَّما كان من الأفضل تأجيلُ إرسالِها، - ولكن لأنَّها تعني لي الكثير كما تعلمين. عزيزتي تانيا، أعانقكِ بحنانٍ كبير.

أنطونيو

---

(1) Slavia دار نشر إيطالية أسَّسها ألفردو بولِّدرو مع زوجته في تورينو سنة 1926، وأغلِقت الدَّار سنة 1934 (بعض المراجع تقول سنة 1935، وأخرى سنة 1938). اهتمَّت الدَّار حصراً بالأدبين الرُّوسي والسلافي حيث نشرت الطبعات الإيطالية الأولى للكثير من المؤلَّفات التي كان من بينها مؤلَّفات دوستوفسكي وبوشكين وتولستوي، وكانت أوَّل دار نشر إيطاليَّة تنشر التَّرجمات المنقولة مباشرةً عن اللغة الروسية الأصليَّة، لا عن اللغة الفرنسيَّة الوسيطة، (م).

دون تأريخٍ لليوم والشّهر، 1936

عزيزتي جوليا،

لَيُحزنني أنا أيضاً ألا أكون قادراً على الكتابة إليكِ، كما أرغب دائماً أن أفعل، على نحوٍ مسهَب ومفصَّلٍ عن حياتي، وعنكِ، عن الولدَين، سعياً منّي لبثِّ القوَّةِ فيكِ أو أقلّه لكي أجنِّبكِ تقليب الأفكارِ سُدَىً ولا أكون مبعثَ حزنٍ لكِ.

في الأيَّام الأخيرة، بعدما سلَّمتني تاتيانا رسائلك المكتوبة سنة 1933، شعرت من جديدٍ، وبقوَّةٍ، كم هو عارمٌ حناني نحوكِ، وكم كان عارماً في كلِّ لحظةٍ من السِّنين السَّالفة، حين انقطعتُ عن الكتابة إليك إذ كنت أشعرُ بعزلةٍ وإحباطٍ كبيرَين. أحسبتِ أنّي لم أشعر، منذ سنة 1932، بأنَّ أمّي المسكينة قد ماتت؟ إنَّه أعظم ألمٍ هزَّني حقّاً بصورةٍ عنيفة، ولئن كنتُ في حالةٍ خطيرةٍ من الإنهاك الجسدي. كيف كان لي أن أتصوَّر أنَّ أمِّي حيَّةٌ فيما هي لم تعد تكتب إليَّ أو تملي على الآخرين رسائلها لي، كما لم يعد أحدٌ من أفراد العائلة يذكرها لي؟ أفكِّر كيف أنَّ الرَّحمة الزَّائفة ليست سوى ضربٍ من البلاهة، أمَّا في حالةِ السَّجين فإنَّها تنقلبُ قسوةً حقيقيَّةً ومطلقة لأنَّها تضع النَّفسَ في حالٍ من التَّوجُّس، من الشَّكِّ المرَضيِّ الذي لا تعلمين ماذا يخفي لكِ،... ظنِّيَ! لقد ألِمْتُ الآن لأجلِك، وأنا أقرأ رسائلك التي كانت محجوبةً عنِّي. عزيزتي جوليا، لا أزالُ أحفظ بعض الذِّكرياتِ عن والدِك، ذكرياتٍ تبقيه حاضراً على الدَّوام في ذهني وتجعلني أفكِّر في حسرةٍ في أنَّنا كنَّا لِنتعرَّف أكثر وبصورةٍ أفضل على بعضنا... لكنَّ هذا يدخل في إطار الفرَص التي ضاعت منِّي ولا أعلم إن كان ذلك خطأي، فمنذ سنة 1920 وصاعداً عشتُ أغلبَ الأوقاتِ تحت

كابوسِ ما حدث في إيطاليا وما كان ينبغي عليَّ أن أتحلَّى به مِن قدرٍ كبيرٍ من القوَّة لكي أقوم بعملِ كلٍّ ما كان يبدو لي صائباً وضرورياً. عزيزتي، أتحسبين أنِّي قادرٌ على مصارحتك بكثيرٍ من الأشياء؟ لقد بلغتُ الآنَ درجةً مَرَضيَّةً من فرط الحساسيَّة تجعلني عاجزاً عن الكتابة حول موضوعاتٍ معيَّنة. ربَّما لم أحسنِ التَّعبير جيِّداً عندما كتبتُ إليكِ عن الولدَين وعن حقيقةِ أنِّي لا أتمكَّن من الإلمام بسيرورةِ حياتيهما فقط من خلال الرَّسائلِ والإلماعاتِ التي تأتين على ذكرها. حتَّى أنَّني لا أدرِك إلى أيِّ نقطةٍ بلغ ارتقاؤهما الفكري. إنَّكِ تهتمِّين بمشاعرهما وبثرائهما العاطفي... ولكنَّك أمٌّ وينبغي دائماً تلقِّي انطباعاتِ الأمَّهات بحيطةٍ وحذرٍ و... كذا الأمرُ في طبيعةِ الحال بالنِّسبة إلى الآباء، إذا كانوا يعيشون دوماً إلى جانب أبنائهم ويتأثَّرون لكلِّ نقلةٍ ضئيلةٍ في حياتهم.

لا أفلِحُ في تكوين مقارنةٍ بين "ثقافتهما" المدرسيَّة وبين ثقافةِ بلدان أوروبا الغربيَّة: لا أستطيع تكوين مقارنةٍ حتَّى إذ أفكِّر في ذكرياتي. مع ذلك: تسلَّمتُ رسالةً من أحد أبناء أخوتي وهو أحدث سنَّاً من دِليو وسيدخل المدرسة الإعداديَّة هذا العام. يبدو لي أنَّه لا يمتلك ما يمتلكه دِليو من ثراء عاطفيٍّ وسعةِ خيالٍ واهتماماتٍ، بيدَ أنَّه على ما بدا لي منظَّمٌ فكريَّاً أكثر منه ويعلم تماماً ما يريده (ينبغي لفت الانتباه إلى أنَّه عاش إلى اليوم حياة ضيقٍ وعوزٍ في إحدى بلدات ساردينيا التي لا يمكن مقارنتها بمدينةٍ عالميَّةٍ تصبُّ فيها تيَّاراتٌ هائلةٌ من الثَّقافات والنزعاتِ والمشاعر التي تصل حتَّى إلى باعة السَّجائر في الشَّوارع!). يبدو لي جوليانو أكثر رصانةً من دِليو سلوكيَّاً، وأقلَّ شواشاً فكريَّاً منه، ولكنَّه لهذا السَّبب نفسه يبدو متأخِّراً قليلاً عنه، وكذلك بسبب مزاجه.

عزيزتي جوليا، ينبغي أن نسكبَ في ولدينا كلَّ الحبِّ الذي كان يوحِّدنا مِن قبلُ بالأثيرين على قلبينا وأن نجعل هؤلاء يعيشون في قلبيهما بأبهى وأجملِ ما تحفظُ الذِّكرى. أعانقكِ بحنانٍ فائقٍ.

أنطونيو

دون تأريخٍ لليوم والشّهر، 1936

عزيزي جوليانو،

إنّي مسرورٌ لأنّك بخيرٍ ولأنّ دراستك تسير على نحوٍ جيِّد، ولكنّ رسائلك قصيرةٌ للغاية وأنا أرغب بمعرفة ما تفكّر فيه وكيف تسير حياتك: إنّك بخير، ولكن كيف؟ لقد شاهدتَ في السِّينما فيلم "أطفال الكابتن غرانت"، ولكنّك لم تكتب إليّ إذا كان الفيلم قد راقك ولماذا. لقد قرأتُ الكتاب عندما كنت صبيّاً مثلك ولشدّما أعجبني، أذكرُ: لقد أعدت قراءته آنذاك عدّة مرّاتٍ، فيما الأطلسُ الجغرافيُّ مفتوحٌ أمامي، وكنتُ أبحث عن كتب أخرى من شأنها أن توضِّح لي العادات والتّقاليد في البلدان التي يمرُّ منها خطُّ العرضِ 34° جنوباً (كما يبدو لي). كان الدُّكتور باجانل بشرودِه وسهواتِه يجعلني أضحك بصخبٍ لوحدي، حدَّ أنّهم كانوا يقبلون عليّ ليتحقّقوا في ما إذا كنتُ قد جُننتَ. الشّيء الوحيد الذي لم يعجبني هو النزعة الشُّوفينيّة ضدّ الإنجليز عندَ **فيرن**[1] (ربّما لم تظهر تلك النزعة في الفيلم الذي شاهدتّه) وسخريته من كتب الجغرافيِّين الإنجليز. كنتُ في يفاعتي

(1) جول فيرن (1828ـ 1905) روائي وشاعر وكاتب مسرحي فرنسي اشتُهر بروايات المغامرات، وكان له الأثر العميق في أدب الخيال العلمي، من أعماله: من الأرض إلى القمر؛ المدينة العائمة؛ حول العالم في ثمانين يوماً؛ الجزيرة الغامضة؛ المدينة المثاليّة؛ ميشيل ستروغوف؛ جزر الهند السّوداء؛ الشُّعاع الأخضر؛ قلعة كاربات؛ أبو الهول الجليدي؛ منارة في نهاية العالم؛ الأمس والغد؛ آدم الخالد؛ باريس في القرن العشرين، (م).

مفتوناً بالإنجليز لأنَّهم كانوا ملاحين عظماء ولديهم الكثير من الجزر التي طالما حلمتُ بالعيش فيها. اكتب إليَّ عن انطباعاتك أنت أيضاً، ولتسهبْ في ذلك، كيما أرى إن كنتَ ماهراً في الكتابة حقّاً: رسائلك مصوغةٌ بصورةٍ جيِّدة، ولكنَّها موجزةٌ ومن غير الممكن أن يحكم المرءُ على عامٍ كاملٍ من خلال يومٍ واحدٍ، أليس كذلك؟ عزيزي جوليانو، أقبِّلك.

والدُك

لا تخشَ مِن وضع السَّاعة في معصمك. لماذا تظنُّ أنَّك ستفقدها؟ السَّاعة لك، لا لتُترَك على الطَّاولة.

رمادُ غرامشي

بيير باولو بازوليني

I

ما هو بأيّاريٍّ هذا الهواءُ المرمَّد
الذي يصيِّرُ هذه الحديقة الغريبة المعتِمة[1]
أكثر إعتاماً، ويُبهِرها

بالبرقِ المعمِّي... لكأنَّ السَّماءَ،
فوق العِلِّيَّاتِ المصفرَّة، زبَدٌ
من أشباه دوائر هائلة تبرقعُ الآنَ

التواءاتِ نهرِ تِفِرِهْ، والجبال الفيروزيَّةِ
جبالِ لاتْسيو... صمتٌ
قاتلٌ، وجافٍ جفاءَ أقدارِنا نفسِها، يسفِكُهُ

بين الأسوار العتيقة هذا الأيَّارُ الخريفيُّ.
فيه ترتسمُ ترميدةُ العالَم؛
ووسط خرائبه تكمنُ الخاتمة

خاتمةُ العقدِ الذي تجلَّى فيه الجهدُ العميقُ
والسَّاذج، جهدُ إصلاحِ الحياة؛
كذلك ثمَّة السُّكون، مُنتِنٌ وعاقرٌ...

(1) يقصد المقبرة الإنجليزيَّة، (م).

شابّاً كنتَ، في شهر أيّارَ ذاك
أيّامَ كان الخطأ معنىً آخرَ للحياة، في ذلك الأيّار الإيطاليِّ
الذي كان، على الأقلّ، يضفي على الحياة جذوةً؛

كنت يا **غرامشي**، وأنتَ الأقلُّ طيشاً وأوفر صحّةً
مِن سائر آبائنا ـ لا أسمّيك أباً، بل أخاً
متّضعاً ـ قد بدأتَ ترسمُ بيدك النَّحيلة

المثالَ الأعلى الذي يريق نورَه
(لكنْ ليس لأجلنا: فأنتَ ميّتٌ، ونحن كذلك
موتى، معكَ، في هذه الحديقة

المبلَّلة) على هذا السُّكون. منهيٌّ أنتَ،
أفلا ترى؟ أن تستريحَ إلا في هذا المقامِ
الغريب، منفيّاً فوق ذلك. ضجرٌ

جليلٌ يحوطُك. وحدَه
الرَّجعُ الخاملُ لانطراقِ السَّنادين يبلُغُك
من وُرَشِ ضاحية تِسْتاتْشو، النَّاعسة

آناءَ الشَّفق: حيث بين السُّقُفِ البائسة، وكُوَمٍ
مِن صفائح فولاذٍ عارٍ، وحديدٍ متآكل،
يُتِمُّ صانعٌ سقيمٌ نهارَه، مدندناً،

فيما تختتمُ السَّماءُ، مِن حولِه، إمطارَها.

II

بين العالَمَين[1]، تقومُ هدنةٌ،
لا مكان لنا فيها. علينا أن نختارَ ونتكرَّسَ... أمَّا الموتى
فلم يبق لهم، بخلافِ صوتِ هذه الحديقة

النَّبيلة والمغِمَّة، صوتٌ آخرَ يلطِّفُ،
بخداعٍ متعنِّتٍ، [ظلَّ] الحياةِ الباقي في موتهم.
في أطواق المدافنِ الحجريَّة لا تفعلُ

رقوشُ العلمانيين المدنِّسة شيئاً
سوى أنَّها تبوحُ بما بقي من مصيرهم،
على تلك الشَّواهد الرَّماديَّة،

القصيرة والمهيبة. ها عظامُ الأثرياء،
أثرياءِ الأممِ العظمى، لا تزال ملتهبةً بهُيامات
لا لاجمَ لها، نقيَّةٍ الآنَ

مِن كلِّ شنار؛ وهي ذي تخفقُ، كأنَّها لم تندثر يوماً،
تهكُّماتُ الأمراء، واللوطيِّين، الهاجعةِ أجسادهم
داخلَ المرامدِ، وقد صارت إلى الأبدِ

(1) يقصد بهما المدينة والحديقة (المقبرة)، (م).

رماداً مذرَّى، منقوصَ الطُّهرِ كما من قبلُ.
ههنا، صمتُ الموتِ يوالي
الصَّمتَ اللطيفَ، صمتَ الرِّجال الباقين

رجالاً، وصمتَ المللِ الذي، في قلبِ المللِ الحداثقيِّ،
يتحوَّرُ خفيةً: المدينة التي،
بحيادٍ، تعزلُه[1] وسط البيوت المتهالكة

والكنائس العديمةِ الرَّحمة، تجرِّدُه
بذلك من ألقِه. أرضُه
الطَّافحة بالقرَّاصِ والبقول، تُطلِقُ

سروَها النَّحيل، وذلك البللَ الأسودَ
الذي يبقِّعُ الجدرانَ حولَ
هَوشاتِ بقسٍ شاحبٍ، إذ يخمدُها

المساءُ الملطِّفُ في شميمِ طحلبٍ
عارٍ... [كذا تُطلِقُ] سحلبيَّاتها الهشَّة
عديمة الرَّائحة، حيث بنفسجيَّاً

يهوي الغروبُ، مع ارتعاشةِ نعناعٍ،
أو تِبنٍ عفِنٍ؛ فيما الليل بارتجافِ أعمى
يلجُ، هادئاً، مثلَ توطئةٍ موسيقيَّة،

(1) أي تعزل هذا الموقع، (م).

قلبَ الحزنِ النَّهاريّ. ضارٍ
هو المُناخ؛ عذبٌ هو، بين هذي الجدران،
تاريخُ الأرضِ التي ترشحُ منها

أرضٌ أخرى؛ عذبٌ البللُ الذي
يستدعي آخرَ؛ بينا تَصدى
ـ مأنوسةً وآتيةً من انفساحاتٍ

وخطوطِ أفقٍ حيثما الغابات الإنجليزيَّة تتوِّجُ
بحيراتٍ تائهةٍ في المدى، وسطَ مروجٍ
خضراء كما بليارٍ فُسْفوريٍّ، أو كما

الزُّمرُّد: "وأنتِ أيَّتها الينابيع..." ـ
الابتهالاتُ الورعة...

III

ها خرقةٌ حمراء، كتلك المعقودةِ
على أعناق المتحزّبين
وعندَ المرمدة، على التُّربةِ الكامدة،

ثمّةَ غرنوقيّان[1]، مِن حُمرةٍ مُغايرة.
ههنا أنتَ منفيٌّ، في بهاءٍ لاكاثوليكيٍّ
صارمٍ، ومدوَّنٌ مع هؤلاء الموتى

الغرباء: آهِ يا رمادَ غرامشي... بين أملٍ
وارتيابٍ قديمٍ، أدنو منكَ، عابراً
صُدفةَ هذه الرَّبوة النَّاحلة، مُقْبِلاً على

قبرِك، على روحِك الباقية
هنا في الأرضِ بين هؤلاء الأحرار. (أو لعلَّه
شيءٌ مغايرٌ، أشدُّ شطحاً

وكذا أشدُّ تواضعاً، وحدةٌ نشوانةٌ
بين غلمةٍ وجنسٍ وموت...)
وفي هذا البلد، حيث قلقكَ لم يهدأ

(1) جنس نباتي يتبع للفصيلة الغرنوقيَّة، ويسمَّى على نحوٍ شائعٍ بإبرة الرَّاعي، (م).

يوماً، أحسُّ كم كنتَ مخطئاً
ـ هنا، في هدأة القبور ـ وفي الآن ذاتِه
كم كنتَ محقّاً ـ حولَ مصيرنا

الكئيب ـ في صوغٍ ورقاتِك الأسمى
خلال أيّامِ مَقتلتِك.
أرى هنا، شاهداً على بذارِ السِّيادة القديمة

الذي لم يُذرَّ بعدُ،
هؤلاء الموتى المصفَّدين إلى مُلكٍ
يغمسُ في لجج القرونِ شناعتَه

وغطرفتَه: مستحوذٌ هو الآخر
ارتجاجُ السَّنادين خِفيةً،
مختنقاً ومُكتئباً ـ من جهةِ الحيِّ

البسيط ـ شاهداً على النِّهاية.
وهأنذَا نفسي هنا... فقيراً، لابساً
ثياباً يرمقها الفقراءُ بإعجابٍ

في واجهاتٍ فظّةِ الرَّونق، أكلحَها
وسَخُ الطُّرقاتِ الأشدِّ عزلةً،
ومقاعدِ الحافلاتِ، مثلما يُكلِحُ

نهاراتي: بينا أغوصُ أعمقَ فأعمق
في هذه الخلوّاتِ الخفيفة، في عذابِ
البقاءِ حيّاً؛ فإذا ما حدث

وأحببتُ العالَمَ، فلن يكون ذلك إلا
حبّاً شهوانيّاً عنيفاً وساذجاً،
تماماً بقدرِ ما كرهتُه مراهقاً مشوَّشَ الفِكر

فيما مضى، عندما كان يجرحني منه،
أنا البرجوازي، الألمُ البرجوازيٌّ ذاتُه: والآن، إذ العالَمُ
منقسمٌ ـ عندَك ـ ألا يبدو موضوعاً

لحقدٍ، لِمهانةٍ شبه روحانيَّة،
القِسْمُ الذي يمتلك السُّلطة؟ مع ذلك،
من دونِ صرامتك، قادرٌ أنا أن أوجدَ

ذلك أنَّه لا خِيار لي. أحيا في زهدِ
المغيَّبِ ما بعدَ الحربِ: عاشقاً
لهذا العالَم الذي أكره ـ تائهاً

في بؤسِه الذي أزدري ـ داخلَ مزلَقِ
سريرتي الغامضِ...

IV

فضيحةُ أن أناقض نفسي، أن أكون
معكَ وضدَّك؛ في الضَّوءِ
معكَ بالقلب، وضدَّكَ في ظلمةِ الأحشاء؛

خائناً نهج أبي[1]
- في الفكرِ، كما في شُبهةِ فعلٍ -
أعرفُ أنِّي مشدودٌ إليه بحميَّةِ الغرائز؛

بالشَّغف الجماليِّ ذاتِه؛
أنا المفتونُ بحياةٍ بروليتاريَّةٍ
سبقتْ وجودَك، لا ديانة لي

إلا في بهجتها، لا في كفاحها الممتدِّ
ألف عامٍ: في فطرتها، لا
في وعيها؛ وحدها القوَّة الفطريَّة
للإنسان، تلك المفقودة من المشهد،
ما يمنحها[2] نشوةَ الحنين،
والبرقَ الشِّعريَّ: وسوى ذلك

(1) يقصد النَّهج البرجوازيَّ، (م).
(2) أي يمنح الحياة البروليتاريَّة، (م).

لا أعرفُ ما أقول، إلَّا ما قد يكون إنصافاً،
لا إخلاصاً، وحبَّاً
نظريَّاً، لا تعاطفاً موجعاً...

فقيرٌ أنا، بين الفقراء، مثلهم
أتعلَّقُ بآمالٍ مُهينة،
ومثلهم أصارِعُ لكي أحيا

يوماً بيوم. لكنْ، في وضعي المكئب،
وضع المحرومِ من الميراث،
أنا هو المالكُ: وملكيَّتي هي الأعظم

بين التَّرِكاتِ البرجوازيَّة[1]، بل هي
الحقيقة المطلقة. ويقيناً، مثلما أمتلك أنا التَّاريخَ،
فالتَّاريخ بدورِهِ يمتلكني؛ إنَّني مستنيرٌ به:

ولكن، ما نفعُه الضِّياء؟

---

(1) يقصد الثقافة البرجوازيَّة، (م).

V

أنا لا أتكلَّم عن الفردِ، بما هو
ظاهرةُ اضطرامٍ شبقيٍّ وعاطفي...
فهو لديه نقائص أُخَر، ولِخطيئته

اسمٌ آخر وقِسمةٌ أخرى...
لكنَّه مجبولٌ على نقائص مُشاعةٍ
سابقةٍ على ولادته، وعلى

خطيئةٍ موضوعيَّة! ليست محصَّنةً
أفعالُه الباطنيَّة والخارجيَّة، تلك التي
تسبغُ عليه جسداً، من أيٍّ دينٍ

من الأديان المشترَعةِ في الأرض،
رهناً عقاريَّاً للموت، كيما
تخدعَ الضِّياءَ، وتضيءَ الخديعة.

ولمَّا كان مكتوباً لرُفاتِه
أن تُدفَن في فِرانو، فإنَّ صراعه معها
لَصنيعٌ كاثوليكيٌّ صرفٌ: يسوعيٌّ

هذا الهلاسُ الذي به يرتِّبُ القلبَ؛

وإذ نستبطنُ أكثر: لضميره
مكرٌ توراتيٌّ... وحَمِيَّةٌ ليبراليَّةٌ

ساخرة... وضياءٌ صَلِفٌ، وسطَ
غثيانِ الغُنْدُرِ الرِّيفيِّ، الممتلئ
صحَّةً رِيفيَّةً أيضاً... حتَّى أحطِّ الدَّقائقِ

حيث تمَّحي، في العمقِ الحيوانيِّ،
كلُّ سُلطةٍ وفوضى... في حِرزٍ تامٍّ
من الفضيلة الدَّنِسة ومن نشوةِ الخطيئة،

مُنافِحاً عن براءةِ المضطهَد،
وبأيِّ ضميرٍ! ، هكذا يحيا الأنا: هكذا أحيا
أنا، مُراوِغاً الحياة، وفي صدري

إحساسٌ بحياةٍ إنْ هي إلَّا نسيانٌ
مُغِمٌّ وعنيف... آهِ كم
أعي، صامتاً في الهزيمِ الرَّطبِ

للرِّيح، هنا حيث روما هي الأخرى صامتة،
بين السَّروِ المشوَّشِ بشقِّ الأنفس،
إلى جوارِكِ، الرُّوحَ التي يعزفُ رقيمَها

شيلي[1]... كم أعي دُوَّامةَ العواطف،
والنَّزوةَ (الإغريقيَّةَ
في قلبِ هذا النَّبيلِ الشَّماليّ

المُصطافِ هنا) التي تُغرِقه
في زُرقة البحرِ التِّيرانيّ[2] المعمَّاة؛ إنَّها الغبطة
الجسدانيَّة بالمجهول، غبطةُ الغلمةِ

والجمالِ: فيما إيطاليا، منطرحةً
كما لو في بطنِ جُدجدٍ هائلٍ، تفتحُ
سواحلَ بيضاءَ على مصاريعها-

مرشوشةً على امتدادِ **لاتسيو** بقطعانٍ مضبَّبةٍ
مِن صنوبرٍ، وفنٍّ باروكيٍّ، وبفُرجاتٍ
مِن زهر جرجيرٍ أصفر، حيث يهجعُ

مع العضوِ المنتفخِ وسطَ الخِرَق مثلَ
حلمٍ غوتيّ[3]، مراهقٌ مِن **تشوتشاريا**[4]...
في ظلماتِ السَّبخةِ السَّاحليَّة، عندَ

---

(1) بيرسي بيش شيلي (1792-1822) شاعر إنجليزي رومانسي، يُعَدُّ من أهم الشُّعراء الغنائيِّين في اللغة الإنجليزيَّة؛ (م).
(2) الجزءُ من البحرِ المتوسِّط الواقعُ جنوب غربي إيطاليا، (م).
(3) نسبةً إلى غوته، (م).
(4) منطقة وسط إيطاليا، ضمن إقليم لاتسيو، لا حدود واضحة لها؛ (م).

سهميَّاتِ ماءٍ باهرةٍ مختَّمةٍ
بشجرِ بندقٍ مُبينٍ، بين الدُّروبِ التي
يغمرُها راعي البقرِ الفَدِرُ غلمةً.

بلا تبصُّرٍ، فوَّاحةً في منحنياتِ فِرسيليا[1]
القاحلة، فوق البحرِ الملتفِّ المعمَّى،
تبوحُ الجِبسيَّاتُ النَّاصعة،

والتَّرصيعاتُ الخفيفةُ لريفِها الفِصْحيِّ
المُمَدَّنِ بالكاملِ، - تبوحُ،
مُدلهِمَّةً فوق حُيودِ تشينكوالِه،

ومتراخيةً تحت الهجيرِ الألبيِّ،
بأزرقَ مُزجَّجٍ على ورديٍّ... صخورٌ طحلبيَّة،
جلاميدُ متهاوية، متقلقلة، كما لو مِن

هلعٍ عطريٍّ، على شاطئ الرِّيفييرا الرَّطبِ،
والوعرِ، حيث الشَّمسُ تنازلُ النَّسَمَ
لكي تضفي طلاوةً فائقةً على زيتيَّاتِ

البحر[2]... ومن كلِّ صوبٍ تقرعُ اغتباطاً

---

(1) الجزء الشَّمالي الغربي من توسكانا، (م).
(2) يشبِّه مشاهد البحر باللوحات الزيتيَّة، (م).

آلةُ نقرِ الجنسِ والضَّوءِ
المقوَّضةُ: تلك المألوفةُ حقّاً

لإيطاليا التي لا ترتعدُ منها أبداً، كأنَّها
خامدةُ الرُّوح: ها هم يهتفون
باتِّقادٍ مِن مئات المرافئ باسمِ رفيقهم

شبَّانٌ بوجوهٍ سُمرٍ
تندَى عرقاً، وسطَ أبناءِ السَّاحلِ،
عندَ حقولِ لُسَّانٍ شوكيٍّ،

على سُوَيحِلاتٍ مُنتِنة...

فهل تسألني أنتَ، أيُّها الميِّتُ المعرَّى،
أن أهجرَ هذا الولعَ
اليائسَ بأن أنتسبَ إلى العالَم؟

VI

سأرحلُ، وأتركَكَ في هذا المساء
الذي، برغمِ حزنه، ينزلُ عذباً علينا
نحن الأحياء، بضيائه الشّاحب

الذي يتخثَّرُ إلى شبهِ ظلٍّ في الحيِّ.
ويُهيِّجُه. يضخِّمُه، يصيِّرُه أشدَّ خواءً،
وإحاطةً، وأشدَّ بُعداً، يعيدُ إيقادَه

بحياةٍ متحرِّقةٍ، حيث مِن
التَّدحرُجِ الأجشِّ للحافلات، ومن زعيق البشر،
واللهجاتِ العامِّيَّة، يصنعُ جوقةً خافتةً

ومُطلَقة. فتشعرُ مع كلِّ تلك الكائنات البعيدة،
الكائنات الحيَّة التي تصرخ، وتضحك،
داخلَ عرباتِها، داخلَ دُوْرِها الكئيبةِ البائسة،

حيث تذوي
مَلَكَةُ الوجودِ الخائنة والمنفتحة ـ
أنَّ الحياة ليست إلا ارتعاشةً؛

حضوراً شهوانيّاً، جَمْعيّاً؛

تشعرُ بغيابِ كلِّ دِينٍ صحيحٍ؛
ليست حياةً، بل مجرَّدَ بقاءٍ

ـ لعلَّه أكثر غبطةً من الحياة ـ كما في
قطيعٍ من الحيوانات، حيث
الانتعاظُ المبهَمُ خِلْوٌ من كلِّ هوسٍ

إلَّا هوسِ الصَّنيعِ اليوميِّ:
وهجٌ ذليلٌ يأخذُ سيماءَه الاحتفاليَّة
مِن فِسْقٍ ذليلٍ. كلَّما بطُلَ المثالُ

ـ في خواء التَّاريخِ هذا، في هذه
الهدنةِ الطَّنَّانةِ التي تخرسُ عندَها الحياة ـ
انبلجَتْ بوضوحٍ أكبر

الشَّبقيَّةُ المسفوعةُ الباهرةُ
والرَّهيفة قليلاً، التي تنمنمُ وتشعلُ الكلَّ
بنارٍ مدنَّسة، فيما شيءٌ ما

مِن هذا العالَم ينهارُ هنا، فإذا
بالعالَم يزحفُ، في دغشةِ الظِّلِّ، والجا
ساحاتٍ خاوية، وورشاتٍ محبَطة...

هي ذي الأضواءُ تشتعل، مرصَّعةً

شارعَ تْزاباليا، وشارعَ فرانكلين، وكلّ أرجاءِ
تِستاتشو العارية، بين جبلٍ عظيمٍ قذِرٍ،

وطرقاتٍ تشاطئُ تِفِره، وخلفيَّةٍ
سوداء، في ما وراءَ النَّهرِ، إذ تتكتَّلُ أرضُ مونتِفِرْدِه[1]
طوراً، وطوراً تتبخَّرُ لامرئيَّةً نحوَ السَّماء.

أكاليلُ ضوءٍ تتبدَّدُ
برّاقةً، ومُبرَّدةً بكدرٍ شبهِ بحريٍّ...
بقي القليلُ على أوانِ العشاء؛

ها تتلألأ حافلاتُ الحيِّ القليلة،
بعناقيدَ بشريَّة من العمَّالِ عند نوافذها؛
زمرٌ من الجنودِ تمضي، على مهلٍ،

نحو الجبلِ الذي يحجبُ وسطَ الأنقاض المُنتِنة،
وأكوامِ النفاياتِ المجفَّفة
في الظِّلِّ، مومساتٍ صغيراتٍ ينتظرن في جحورِهنَّ،

محموماتٍ فوق تلك القذارةِ الأفروديتيَّة:
وغير بعيدٍ عنهنَّ، بين عشوائيَّاتٍ
عندَ حوافِّ الجبل، أو وسطَ عِماراتٍ،

(1) منطقة في جنوب إيطاليا تتبع لمقاطعة أفِلّلينو، (م).

كأنَّها بحجمِ عوالِمٍ، أرى فِتيةً
خِفافاً كمثلِ خِرَقٍ رثَّة يلهونَ في النَّسَمِ
المسخَّنِ، نسَمِ الرَّبيعِ؛ مضطرمين

بطيشِ غُلمتِهم، في هذا المساءِ الأيَّاريِّ
من مساءاتِ روما، يصفِّرُ غِلمانٌ سُمرٌ
على الأرصفة، تحت ألقِ

العيدِ الغسقيِّ؛ وتنسدلُ مجلجلَةً
ستائرُ الكَرَاجاتِ المعدنيَّة، اغتباطاً
بالظُّلمةِ التي سكَّنتِ المساء،

وبين شجر الدُّلبِ في ساحةِ تِسْتاتشو
تهبط الرِّيحُ في رِجفاتِ العاصفة،
عذبةً، ولئن حصدتْ وبَرَ المسلخِ

وحجَرَه البركانيَّ، وتشرَّبتْ
دماً عفِناً، وفي كلِّ جهةٍ
تُهِيجُ فضلاتٍ وروائحَ بؤسٍ.

صخبٌ هي الحياة، وهؤلاء الضَّائعون
فيها، يضيِّعونها بلا أسفٍ،
إذا ما امتلأت قلوبهم منها: ها هم

يتلذَّذون ببؤسِهم، هذا المساء: الأسطورةُ
العظمى تنبعث فيهم، ولأجلهم،
هم العُزَّلُ... أمَّا أنا، فهل أقدرُ بعد الآن،

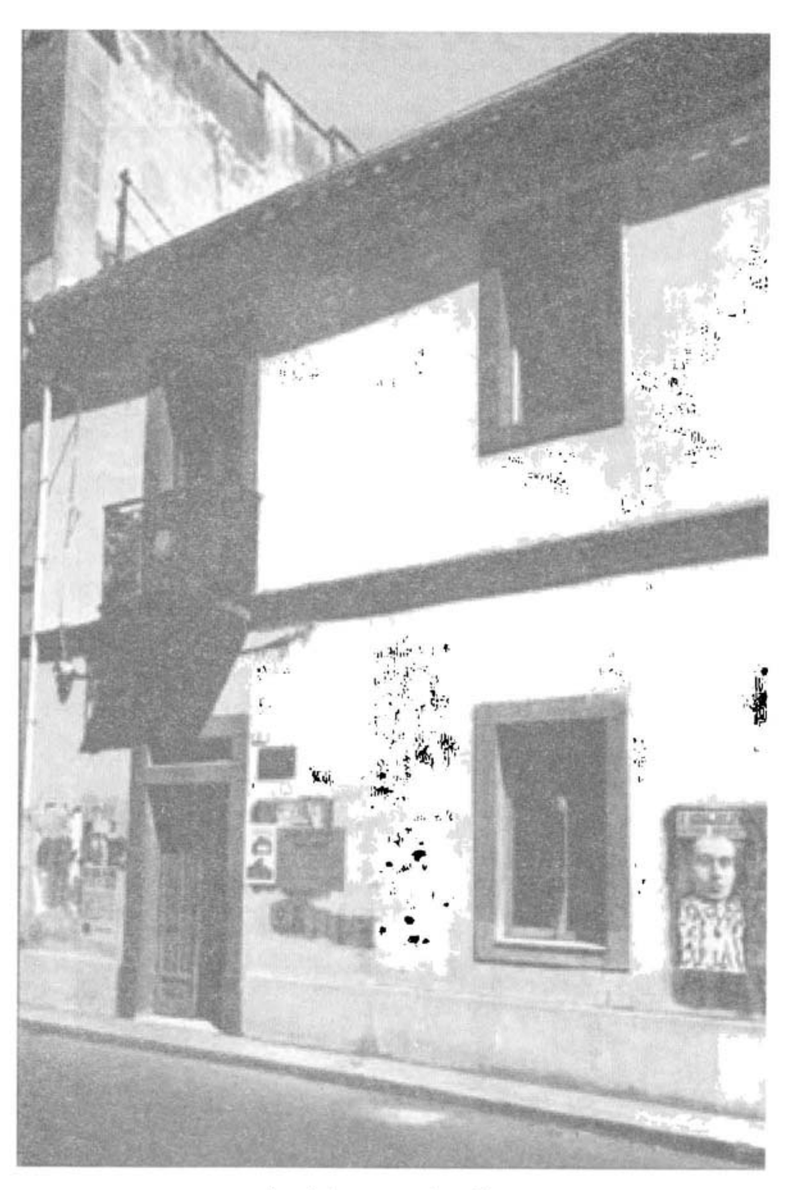
بهذا القلبِ الفطِنِ فقط لمن هو
حيٌّ داخلَ التَّاريخ، أن أعملَ بولعٍ خالصٍ،
وأنا عالمٌ أنَّ تاريخنا انتهى؟

1954

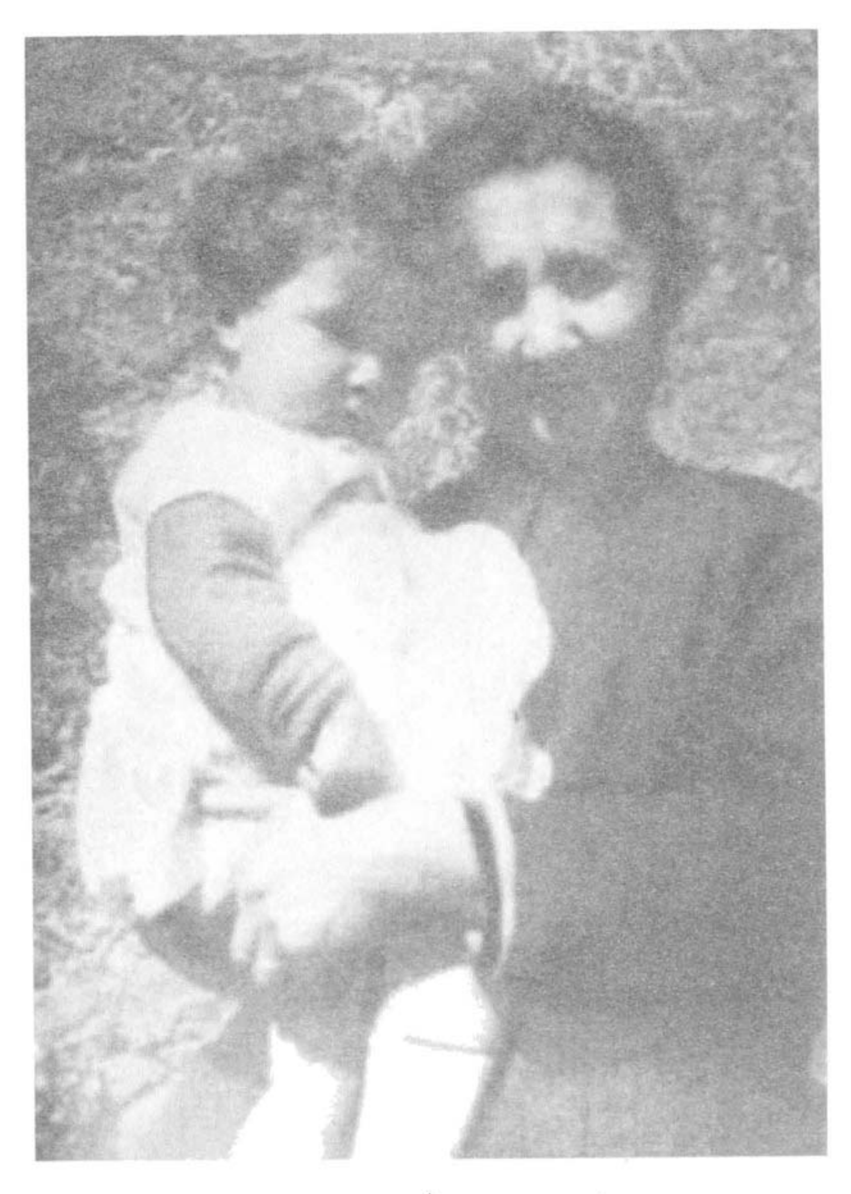
مُلحق الصُّور الأرشيفيَّة



البيت الذي وُلِد فيه غرامشي، في آلِس



منزل غرامشي في غيلارزا

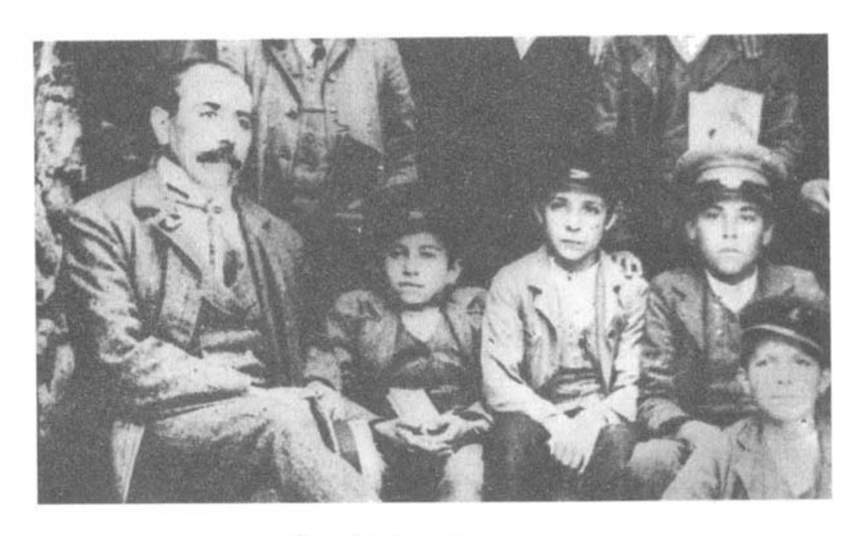


والدة غرامشي جوزيّنا مارشياس 1920



والدُ غرامشي

غرامشي فتىً 1906



غرامشي في المرحلة الإعداديّة

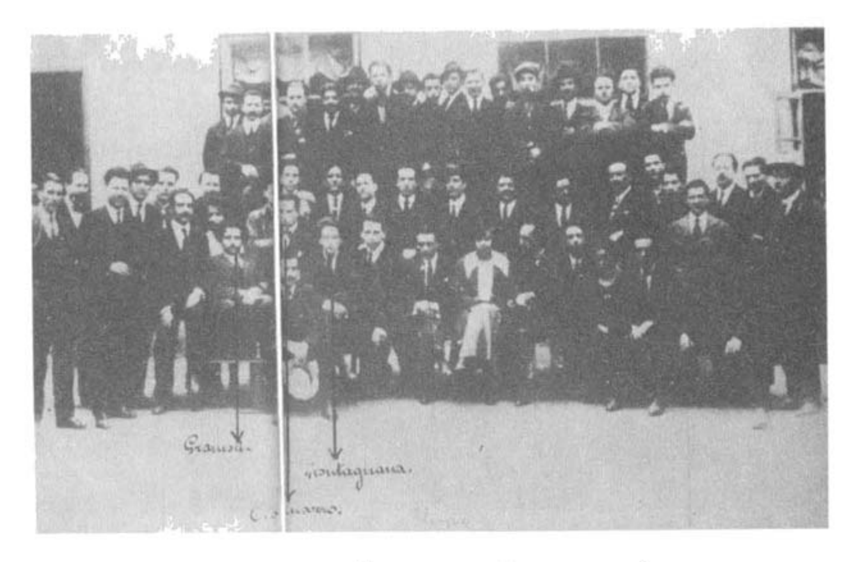


غرامشي 1916

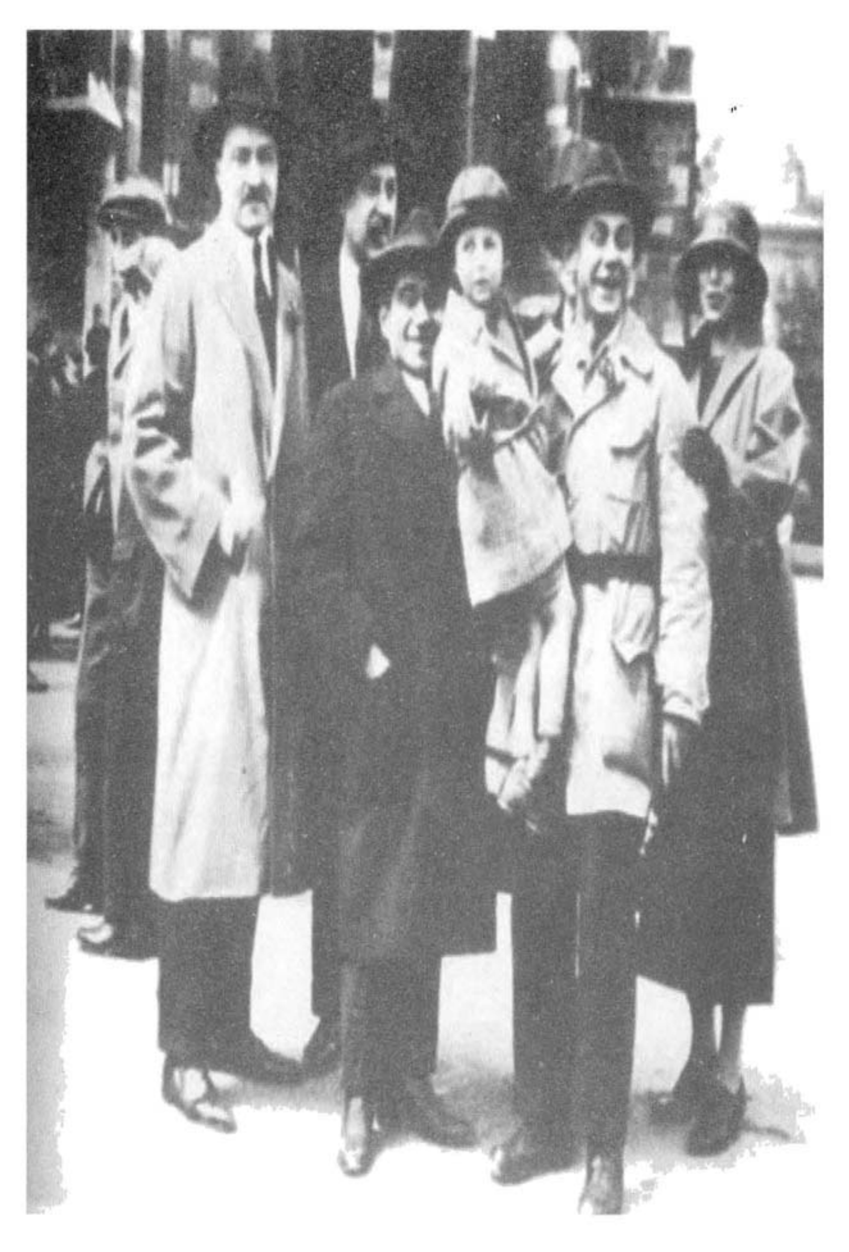


غرامشي 1922

غرامشي في غيلارزا 1924



غرمشي مع أسرة تحرير "النُظام الجديد"



غرامشي في فيينا 1924



تِرزينا، شقيقة غرامشي

جوليا، زوجة غرامشي، وولداهما دِليو وجوليانو

جوليا ودِليو وجوليانو



غرامشي في السِّجن 1933



قبر غرامشي في روما

الفهرس

الكتاب الثّاني

رمادُ غرامشي

صدر للمترجم

شعر:

"ن"،دار بدايات،بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2008.

بيرودجا: "النَّص- الجسد"، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2009.

مِلاحاتٌ إيروسيَّة، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2011.

وردةُ الحيوان، حواريَّة حب شعريَّة مع الـشَّاعر الإيطاليَّـة ماريَّـا غراتسيا كالاندروني، دار التكوين، دمشق، 2014.

ترجمات:

أفكار، جـاكومو ليوبـاردي، هيئـة أبـو ظـبي للتُّـراث والثَّقافـة، مشروع كلمة للترجمة، أبو ظبي، 2009.

الأرض الميِّتة، غابرييل دانُّونتسو، دار طُوى، لندن، 2012.

الآثار الشِّعريَّة الكاملة لدينو كامبانا، أناشـيد أورفيَّـة وقـصائد أخرى، دار التكوين، دمشق، 2016.

مَن يوسِّعُ ليَ البحر، ميكل كاكامو، دار التكوين، دمشق، 2016.

خبز ونبيذ وقصائد أخرى، هولدِرلِن، دار التكوين، 2016.

* * *



Antonio Gramsci

L'albero del riccio e nuove lettere

عزيزتي تانيا،

... لقد انتظرتُ الانقلابَ الصَّيفيَّ بفارغِ الصَّبر، والآن إذْ تميلُ الأرضُ (لا شكَّ أنَّها تعتدلُ بعد الميلان) نحو الشَّمس، فإنَّني مغتبطٌ أكثر (المسألة متعلِّقةٌ بالضِّياء الذي تحمله المساءات وهو ذا الدَّفقُ الأرضيُّ!)؛ دورةُ الفصول، المرتبطةُ بالانقلابين وبالاعتدالَين، أحسُّها لحمَ جسدي؛ الوردةُ حيَّةٌ ومتفتِّحةٌ حتماً، ذلك أنَّ الحرَّ يروِّضُ الجليدَ وتحت الثَّلجِ تختلجُ الآنَ أوَّلُ البنفسجات؛ عدا ذلك فإنَّ الوقتَ يبدو لي كمثلِ شيءٍ فائق الجسامة، مُذ كفَّ الحيِّز عن الوجود بالنِّسبة إليَّ.

عزيزتي تانيا، سأنهي هذا الهذرَ وأعانقكِ.

أنطونيو

